نوريت بيلد-إلحنان

كيف يعلم الطغاة أطفالهم؟
شرعنة إقصاء الفلسطينيين في الكتب المدرسية الإسرائيلية رمزيًا وماديًا

ملخص

تشكّل هذه الورقة فصلًا في بحث أطول عنوانه «من تعليم المحرقة إلى تعليم السلام» (From Holocaust Education to Peace Education). وتتناول هذه الدراسة خطاب الضحايا والسلطة الذي يوظَّف في الكتب المدرسية المتداولة في إسرائيل، والذي يعمل على شرعنة احتلال فلسطين. ويغرس هذا الخطاب في النفوس الخوف من الأغيار، ويرسّخ مبدأ سيادة الأغلبية ويسهم في تشكيل الهوية الإسرائيلية القائمة على السلب والنهب.[1]

توظف هذه الدراسة المنهجية الاجتماعية-السيميائية في التحليل المتعدد الوسائط (Kress 2010)، حيث تتعامل مع إشارات من قبيل الكلمات أو النحو، والأنواع، والصور والألوان، والتأطير والتصميم باعتبارها تعكس الأيديولوجيا والمصالح ووجهات النظر والقيم السائدة في ثقافة بعينها. وتعرّج الدراسة على نصوص لفظية وبصرية مقتبسة من ٣٠ كتابًا من كتب التاريخ والجغرافيا والدراسات المدنية (المدنيات) المتداولة في المدارس الإسرائيلية والمنشورة في الفترة الواقعة بين العامين ١٩٩٤ و٢٠١٧. وتوظف هذه الكتب المدرسية وسائل متعددة الوسائط من أجل شرعنة الاستيطان الكولونيالي الإسرائيلي وحالة الإقصاء الدائبة التي تستهدف المواطنين الفلسطينيين وغيرهم ممن يخضعون لحكم إسرائيل. وقد صُممت هذه الكتب على نحو تظهر فيه كما لو كانت طبيعية وتتماشى مع حاجات البقاء التي تلزم دولة إسرائيل 'الديموقراطية التي تدافع عن نفسها'. ويجري تمثيل الفلسطينيين بوصفهم مشكلات ينبغي إيجاد

* محاضرة في علوم اللغة والأدب والتربية في الجامعة العبرية في القدس.

ويبدو أن أعمال الدولة وشرعنتها في الكتب المدرسية تتسم بأسلوب منهجي عند تأطيرها ضمن نموذج الاستيطان الكولونيالي. وتكمن الإجابة عن السؤال المطروح «لماذا لا تستطيع إسرائيل أن تتوصل إلى اتفاق سلام مع الفلسطينيين؟» في «أن ذلك لم يكن جانبًا من الخطة على الإطلاق».

حلّ لها أو بوصفهم «العدو من الداخل» – حيث يكونون غير مرئيين في العادة أو يجري تمثيلهم من خلال صور أو رسوم كاريكاتورية نمطية. ولا يجري تمثيل الفلسطينيين مطلقًا بوصفهم أناسًا نستطيع أن نتماهى معهم أو نرغب في التقارب معهم، ولا يشكل العدد الضئيل من الصور التي تصورهم سوى «دليل» على الإرهاب والتخلف. ولا تلقى روايتهم التاريخية من يسردها على الإطلاق.[٢]

وتفترض هذه الورقة أن تمثيل الفلسطينيين في الكتب المدرسية يُعنى بشرعنة منطق الاستيطان الكولونيالي الإسرائيلي الذي يقوم على استئصال الفلسطينيين، أو على الحاجة النهائية المتمثلة في إبعادهم وإقصائهم واطّراحهم من الناحيتين الرمزية والمادية. وليس هناك أفضل من إطار استعارة البستنة[٣] لتفسير عملية الشرعنة هذه، حيث تفسره وتبيّنه في إطار المخطط الصهيوني العام الذي يرمي إلى خلق مجتمع مصطنع على الوجه الذي ترغب فيه الصهيونية وتتطلع إليه.

إسرائيل بوصفها دولة قومية تقوم على الاستيطان الكولونيالي

يعرّف معظم المؤرخين النقديين إسرائيل باعتبارها دولة استيطانية كولونيالية (Wolfe 2006/2012, Pappe 2017, Lloyd 2012, Piterberg 2008 , Kimmerling 2001، من جملة مؤرخين آخرين)، أو باعتبارها ديموقراطية إثنية (Smooha 2001) أو باعتبارها إثنوقراطية (Yifta-chel 2006). وتكمل هذه التعريفات بعضها بعضًا. فقد أسس إسرائيل مستوطنون ينحدرون من (شرق) أوروبا، بعد أن احتلوا الأرض بالقوة وارتكبوا جريمة التطهير العرقي بحق سكانها المحليين واستولوا على أراضيهم وديارهم، التي لم يسخروها لأنفسهم فحسب، بل لآخرين على شاكلتهم أو من أبناء ديانتهم خارج فلسطين.

وقد بيّن المؤرخون أن أفضل تحليل للرواية الإسرائيلية المهيمِنة يكمن في أنها رواية استيطانية كولونيالية نمطية، تتألف من ثلاثة محاور رئيسية: أولها التشديد على تفرُّد الأمة المستوطِنة وطابعها الاستثنائي، وثانيها خصوصية الصفة الذاتية التي تَسِم المستوطنين، وثالثها رفض الاعتراف بوجود الشعب الذي يرزح تحت نير الاستعمار (Pappe 2017). والاستيطان الكولونيالي عبارة عن «مشروع حصري يتمحور حول الأرض [...] بغية استئصال شأفة المجتمعات الأصلانية،» (Patrick Wolfe 2006:24)، ويتألف من المستوطنين الكولونياليين الذين لم يبرحوا المستعمرات وحولوها إلى دول قومية. ومع ذلك، فحسبما جاء على لسان أبادوراي (Ap-padurai 2006: 11)، «يُعَدّ الطريق من الأمة إلى الجنسية المقدسة إلى النقاء الإثني، وبالتالي التطهير، طريقًا مباشرًا. ويبدو أن الدم والقومية تجمعها عروة لا انفصام لها.» ويعبّر «الصراع» الإسرائيلي–الفلسطيني في واقع حاله عن الاستيطان الكولونيالي اليهودي في فلسطين، وعن المقاومة التي يخوضها الفلسطينيون في وجهه.

ويبدو أن أعمال الدولة وشرعنتها في الكتب المدرسية تتسم بأسلوب منهجي عند تأطيرها ضمن نموذج الاستيطان الكولونيالي. وتكمن الإجابة عن السؤال المطروح «لماذا لا تستطيع إسرائيل أن تتوصل إلى اتفاق سلام مع الفلسطينيين؟» في «أن ذلك لم يكن جانبًا من الخطة على الإطلاق».

وفي هذا المقام، يلاحظ بيتربيرغ (Piterberg 2008:69) أنه «لم يُطرح منذ العام ١٩٤٠ ما يُسمى مقترحًا لبلوغ السلام ولا يقوم في أساسه على منطق المستعمرة المزدوجة.» ويعقّب رابينوفيتش (Rabinowitch 2001) على ذلك بقوله: «لم يسبق لإسرائيل أن شجعت على 'تعليم السلام' أو الاختلاط الرسمي بين الطلبة اليهود والفلسطينيين.» وحسب التأكيد الذي يسوقه بابيه (Pappe)، «تشدد منظومة التعليم الصهيونية على حالة التفرّد المزعومة التي تَسِم الأمة اليهودية في بحثها الدؤوب عن السيادة في الوطن الذي حَباهم الكتاب المقدس به، ومنح الأفضلية والميزة لوعي المستوطنين الصهاينة على حساب الشعب المستعمَر، وما يقترن بذلك من تركيز على نوايا المستوطنين دون التركيز على النتائج المترتبة

على أفعالهم.»

ويعتقد باتريك وولف (Patrick Wolfe 2012:136) أن السياسة الصهيونية في فلسطين تفضي إلى استشراء الاستيطان الكولونيالي واستحكامه: «في تناقض صارخ مع النموذجين اللذين كانا سائدين في أستراليا والولايات المتحدة الأميركية، فقد رفضت الصهيونية، وهي لا تنفك ترفض، أي اقتراح بشأن استيعاب السكان الأصلانيين رفضًا قاطعًا.

وحسب الملاحظة التي يراها إدوارد سعيد (Edward Said 1979: 29)، «كانت جميع الطاقات التي تشكّل الصهيونية ترتكز على الوجود الذي جرى إقصاؤه، وذلك هو الغياب الوظيفي لـ'الشعب الأصلاني' في فلسطين». فالفلسطينيون مُقْصَوْن أو غائبون بينما هم جميعًا موجودون. فلم يفتأ الصهاينة يتطلعون إلى الاستيلاء على أكبر قدر ممكن من الأرض التي يقطنها أقل عدد ممكن من العرب. وحسب التأكيد الذي يسوقه المؤرخ باروخ كيمرلينغ (Baruch Kimmerling 2001: 44)، «كانت الموارد المركزية التي تتبوأ موقع الصدارة في الصراع تكمن في الأرض والشعب – وكلاهما كيانان محسوسان وقابلان للقياس ويمكن تمييزهما بيسر وسهولة. فمنذ البداية، كانت الانشقاقات الأيديولوجية والدينية والأولية بمثابة قضايا ثانوية، ولم تدخل في دائرة الصراع إلا في مرحلة لاحقة.» وما تزال إسرائيل تتوسع خارج حدودها الدولية، وتتعامل مع المستعمرات التي تقع تحت هيمنتها باعتبارها جزءًا لا يتجزأ من إقليمها، وتمثلها بهذه الصفة في كتبها المدرسية، حيث تكاد الخرائط لا تتضمن مدينة أو جامعة أو مواقع ثقافية فلسطينية، سواء داخل إسرائيل أم داخل فلسطين المحتلة. ولا يجري تصوير أي واقع آخر على الإطلاق. وهذا هو السبب الذي يقف وراء تسمية كتب الجغرافيا بعنوان أرض إسرائيل، وليس دولة إسرائيل. وفي هذا السياق، يبيّن عالم الجغرافيا يورام بار-غال (Yoram Bar Gal 1993a: 125) أن القائمين على إعداد المناهج التعليمية في إسرائيل لم يسلّموا مطلقًا بالحدود الدولية، التي تبدو لهم كما لو كانت «تسلسلًا عارضًا نجم عن الأوامر بوقف إطلاق النار التي شلّت الزخم العسكري».

وتشرعن الكتب المدرسية الأعمال المتواصلة التي تستهدف طرد الفلسطينيين من أراضيهم على أساس الحاجة إلى تهويد البلاد عن بكرة أبيها. فعلى سبيل المثال:

«[ينبغي لنا] أن نحافظ على أرض الوطن وأن نحميها من غزو السكان غير اليهود على نحو يجانب القانون، وأن نستملك الأراضي ونطورها بغية منع الامتداد الإقليمي للمستوطنات غير اليهودية، خوفًا من أن يتسبب الامتداد العربي في فصل الجليل عن دولة إسرائيل.»[٤]

ويبيّن وولف (Wolf 2006: 24) أن الاستيطان الكولونيالي يحول الشعب الأصلاني إلى الاعتماد على اقتصاد الدولة القائمة بالاحتلال أو «يختزله إلى الغارات الجماعية التي توفر الحجة الكلاسيكية التي تسوغ عمل فرق الموت الكولونيالية». ومن الشواهد على ذلك أعمال القتل المنهجي الذي طال «المتسللين» الفلسطينيين الذين فُصلوا بصورة تعسفية عن بيوتهم وحقولهم بعد ترسيم الحدود مع الأردن في العام ١٩٤٨. وتقرّ بعض الكتب المدرسية (مثل كتاب Bar Navi 1999) بأن غالبية هؤلاء المتسللين كانوا يسعون إلى بلوغ حقولهم وجمع محاصيلهم، بيد أن هذه الكتب تشيد مع ذلك بقتلتهم بوصفهم أبطالًا وقدوة يُحذى حذوها، مثلما يظهر ذلك في الرواية الواردة حول مجزة قبية التي اقتُرفت في العام ١٩٥٣، والتي نعرّج على ذكرها فيما يلي من هذه الورقة.

استعارة البستنة وتطبيقها على منظومة التعليم في إسرائيل

تُعَدّ استعارة البستنة التي وضعها زيغموت باومان (Zig-munt Bauman 1989:65) أفضل ما يفسر السياسة التي تعتمدها إسرائيل تجاه الفلسطينيين والطريقة التي تتوخاها في شرعنة هذه السياسة في نظر الأجيال الشابة.

وتنطبق هذه الاستعارة على الأنظمة التي ترغب في تشكيل مجتمع مصطنع يتسم بالنقاء ويبلغ درجة الكمال. فهذه الاستعارة تعبّر عن «ممارسة تجمَع إستراتيجيات الهندسة المعمارية والبستنة مع إستراتيجيات التطبيب – وتسهم في بناء نظام اجتماعي مصطنع، من خلال قطع العناصر التي تؤلف الواقع الراهن والتي لا تتواءم مع الواقع المثالي المتصوَّر ولا يمكن تغييرها بحيث تصبح متوائمة معه.»

ومن زاوية استعارة البستنة يبيّن تعريف المشروع الاستيطاني الصهيوني والسلوك الذي تسلكه إسرائيل في هذه الآونة، وعلى نحو لا موارية فيه، أن الإجراءات التي تستهدف سلب الفلسطينيين وتجريدهم من ممتلكاتهم وإقصاءهم وقتلهم لا تُعدّ حوادث لا رابط بينها، بل تشكل سلسلة متصلة أُعِدّت الخطط المحكمة لإنفاذها. وحسب الملاحظة التي يسوقها وولف (Wolfe 2012: 137)، «تقدم الصهيونية مثالًا لا نظير له على التخطيط الصريح والمتعمد. فلم يسبق أن شُنت حملة تستهدف سلب الأرض على نحو يفوق هذه الحملة

ويجري تحويل الفلسطينيين، من أجل شرعنة إقصائهم واستئصالهم، إلى مشاكل مجردة أو تمثيلهم في صور نمطية بغيضة تسوغ ضرورة إبعادهم وعزلهم ضمن حدود واضحة المعالم، أو طردهم والقضاء عليهم دفعة واحدة - وهو ما يعد مفضلًا - وكل ذلك لغايات تشكيل مجتمع نقي أو مجتمع يحتضن أغلبية يهودية على الأقل.

في التمعن والتفكير.»

وبما أن كلًا من الكولونيالية والاضطهاد والاحتلال يعدّ بمثابة جريمة في العالم المتنور اليوم، تحتاج منظومة التعليم في إسرائيل إلى وسائل بالغة التعقيد للشرعنة لكي تحضّر جنودها المستقبليين وتجهّزهم لمواصلة العمل على تنفيذ هذه الممارسات. وتعبّر الشرعنة، حسبما يعرّفها مارتين روجو وفان دايك (Martin-Rojo and Van Dijk 1997: 560-561) عن 'عزو القبول للفاعلين الاجتماعيين، والأفعال والعلاقات الاجتماعية ضمن النظام الطبيعي'، وذلك في سياقات 'الأفعال التي تثير الجدل، أو الاتهامات أو الشكوك أو النقد أو الصراع على مجموعات من العلاقات والهيمنة والقيادة.'

ويجري تحويل الفلسطينيين، من أجل شرعنة إقصائهم واستئصالهم، إلى مشاكل مجردة أو تمثيلهم في صور نمطية بغيضة تسوغ ضرورة إبعادهم وعزلهم ضمن حدود واضحة المعالم، أو طردهم والقضاء عليهم دفعة واحدة – وهو ما يعد مفضلًا – وكل ذلك لغايات تشكيل مجتمع نقي أو مجتمع يحتضن أغلبية يهودية على الأقل.

طبيعة الكتب المدرسية

الكتب المدرسية عبارة عن نصوص متعددة الوسائط وتتألف من مقطوعات لفظية وبصرية. وتتمثل الوظيفة التي تؤديها الكتب المدرسية في إضفاء الصفة الشرعية على الدولة وعلى الإجراءات التي تنفذها، من أجل إعادة إنتاج الرواية القومية على حساب الدقة وتعليم الأطفال كيف يكونون مواطنين يشكلون محط اهتمام الدولة (J. Wertch 2002).

وتُعنى الكتب المتداولة في المدارس الإسرائيلية بغرس الذاكرة الجمعية الصهيونية في عقول الطلبة وتشكيل هوية يهودية قومية-تقليدية، تنطوي على شرعنة إسرائيل بوصفها دولة استيطانية-كولونيالية وإقصاء الفلسطينيين من عالم الحياة الإسرائيلية (Peled-Elhanan 2012).

وتُعد الكتب المدرسية المتداولة في إسرائيل كتبًا تجارية، ويستطيع المعلمون اختيار الكتب التي يريدونها من طائفة متنوعة وواسعة من الكتب. ولكن ينبغي الحصول على موافقة وزارة التربية والتعليم على جميع الكتب لتأمين السماح باستخدامها في المدارس. ولهذه الغاية، يجب أن تلتقي هذه الكتب على أرضية أيديولوجية مشتركة تتألف من عدة افتراضات أساسية لا جدال فيها (Fairclough 2003). وتشكل هذه الافتراضات الخرافات التي تفسر الصهيونية الاستيطانية الكولونيالية، وهي تقدَّم على أنها «حقيقة مسلَّم بها وبديهية وبيّنة بذاتها، وليس باعتبارها وجهة نظر أيديولوجية.» (Piterberg 2008: VII).

١- الافتراضات الوجودية: ترتبط المجموعة الأولى من الافتراضات بما هو موجود. وما من شك في أن ما هو موجود في الخطاب الاجتماعي والسياسي والتعليمي الإسرائيلي يتمحور حول الحقوق «التاريخية» اليهودية في كامل أرض فلسطين التي تسمى «أرض إسرائيل». وترتكز هذه الحقوق التاريخية في أساسها على الكتاب المقدس، الذي يشكل وثيقة تاريخية بالنسبة إلى الصهيونية العلمانية. «وقد ربط الصهاينة تطلعاتهم الحديثة بتقليد مجتمعي بائد» (Pappe 2017: 31)[٥]. ويأتي ذلك على الرغم من أن الكتاب المقدس لا يأتي على ذكر اليهود من قريب ولا من بعيد، وإنما يتحدث عن أسباط بني إسرائيل الاثني عشر، والذين اندمج معظمهم في البيئة المسيحية أو الإسلامية على مر العصور. ولكن هذه الحقيقة لا تسبب إرباكًا لدعاة الأيديولوجيا الصهيونية ولا تثير حيرتهم.[٦]

وعلى هدي من هذه الروح، يطلعنا كتاب «بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط للصف الخامس» (The Mediterranean Countries) على أن «القدس كانت عاصمة الشعب اليهودي على الدوام (باستثناء ٢,٠٠٠ سنة لم نكن موجودين خلالها هنا).» (ص. ٥٤).

ويتضمن الكتاب نفسه فصلًا بعنوان «بحر واحد بأسماء عديدة». ومع ذلك، لا تشمل هذه «الأسماء العديدة» المسميات التي أطلقتها مختلف الشعوب التي عاشت على سواحل البحر الأبيض المتوسط عليه، بل تقتصر هذه الأسماء على الأسماء

العبرية التوراتية التي كانت تُطلق على هذا البحر والتي ورد ذكرها في الوعد الإلهي:

«إن البحر الأبيض المتوسط مذكور سلفًا في الكتاب المقدس. فهل يُسمى بهذا الاسم في كتاب الكتب؟» سفر الخروج، الإصحاح ٢٣، الآية ٣١: « وأجعل تخومك من بحر سوف إلى بحر فلسطين، ومن البرية إلى النهر». سفر التثنية، الإصحاح ١١، الآية ٢٤: «كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم [...]. من النهر، نهر الفرات، إلى البحر الغربي يكون تخمكم». سفر يشوع، الإصحاح ١، الآية٤: «من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات وإلى البحر الكبير ... نحو مغرب الشمس يكون تخمكم.» سفر التكوين، الإصحاح ٢٨، الآية ١٤: «وتمتد غربًا وشرقًا وشمالًا وجنوبًا». وفي هذا المقام، يبين كتاب «بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط» أن «هذه العبارة تعني أن بلادكم سوف تمتد في المستقبل إلى الشمال والجنوب، وإلى الشرق والغرب.» (ص. ١١).

ومن وجهة نظر سيميائية، يضفي هذا التناص مع الكتاب المقدس بصمة مقدسة على الكتاب المدرسي المذكور وبصمة علمية على صحة ما ورد في الكتاب المقدس وصدقه (Lemke 1998).

وبما أن الرواية الإسرائيلية تضرب جذورها في الفكرة التي

الصورة رقم (١): بلدان البحر الأبيض المتوسط

تقول إن الدولة تحظى بحق إلهي في الوجود، «يقوم العنف والسيادة [...] على الادعاء باستنادهما إلى أساس إلهي. ويُفترض في التاريخ والجغرافيا وعلم رسم الخرائط وعلم الآثار أن يساندوا هذا الادعاء، بحيث تقيم رباطًا وثيقًا بين الهوية والطوبوغرافيا (Mbembe 2003)

ومن جملة الافتراضات الوجودية الأخرى أن الفلسطينيين، أو 'عرب إسرائيل' حسب التسمية التي تطلقها الكتب المدرسية الإسرائيلية عليهم، 'هجروا' قراهم، سواء أكان ذلك بدافع خوف لم يكن له ما يوجبه أم بناءً على الأوامر التي صدرت إليهم من زعمائهم. وفي كل موضع تأتي فيه الكتب المدرسية الإسرائيلية على ذكر قرية فلسطينية جرى تطهيرها، تترافق الصفة «مهجورة» مع تلك القرية في جميع الأحوال. وفي هذا السياق، يَرِد في كتاب «الأزمنة الحديثة: الجزء الثاني (Mod-ern Times II)، (ص. ٢٣٨-٢٣٩) فصل بعنوان «خلق المشكلة الفلسطينية»، حيث نرى فيه أفراد عائلة من القادمين الجدد اليهود الشباب، وهم يجلسون على حقائب مرتجلة في منتصف شارع خالٍ لا اسم له.

وحسب التعليق الوارد تحت هذه الصورة:

«عملت الدولة، خلال السنوات الأولى من إقامتها، على استيعاب مئات الآلاف من «العوليم» [القادمين الجدد اليهود] الذي أتوا إليها وهم لا يلوون على شيء. وقد أُسكن الكثير منهم في القرى العربية المهجورة، إحداها قرية «ياهود» التي التُقطت هذه الصورة فيها في العام ١٩٤٨.»

وترد هذه الصورة في الزاوية اليمنى في أسفل الصفحة تحت عنوان: «المشكلة الفلسطينية.» وهذه الصورة خالية من الناس وتبدو كما لو كانت تصور كارثة بيئية. ويقول التعليق الوارد على هذه الصورة:

«لقد نضجت 'المشكلة الفلسطينية' وبلغت مبلغها من الفقر والجمود والإحباط الذي كان قدر اللاجئين في مخيماتهم البائسة.»

ويعتبر فان لووين (Van-Leeuwen 1996: 60) أن من بين ملامح الخطاب العنصري الإحالة إلى الناس عن طريق اسم لا يتضمن الخاصية الدلالية '+ إنساني'، أو «تمثيل الفاعلين الاجتماعيين من خلال صفة تُعزى إليهم، كالصفة

الصورة رقم (٢): بإذن من المكتب الإعلامي الحكومي الإسرائيلي، دار مابا للنشر، إسرائيل.

التي تَسِمُهم بأنهم يمثلون مشكلة». وحسبما يلاحظ المرء، تعمل هذه المشكلة بنفسها، أو تُعدّ مستقلة عن سبب إنساني أو عن الضحايا من الناس.

ونرى في الفصل، الذي يأتي تحت عنوان «إسرائيل – دولة جديدة»، من كتاب «عالم من التغيرات» (A World of Changes)، الصورة نفسها لهؤلاء المهاجرين اليهود وهم يجلسون قبالة قرية مدمرة يجري العمل على إعادة بنائها هذه المرة. ويرد في التعليق الوارد على يمين الصورة: «أعمال البناء في قرية عين حوض المهجورة، والتي أُعيدت تسميتها إلى «عين هود، ١٩٤٩» .

ومرة أخرى، لا يظهر أي فلسطينيين في هذه القرية «المهجورة». فوجودهم يعدّ مفترضًا ولا 'يثبته' سوى الاسم السابق للقرية، وهو الاسم الوارد في التعليق المذكور[٧]. ويقرر النص:

كان ينبغي على إسرائيل، في السنوات الأولى من عمرها، أن تتعامل مع استيعاب موجة كبيرة من القادمين الجدد، وهي موجة لم يسبق لها مثيل في نطاقها بالمقارنة مع البلدان الأخرى التي تشهد الهجرة إليها [...] وقد رفضت الحكومة المطالبة بعودة عائلات اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم وقررت وضع يدها على جميع المنازل المهجورة في قراهم ومدنهم وتوطين عدد كبير من القادمين اليهود الجدد الذين قدموا من أوروبا الشرقية والدول العربية فيها، (ص. ١٧٧)

ويخلق الإحجام عن تمثيل الفلسطينيين في قريتهم المدمرة 'بقعة عمياء' (blind spot)) (Barthes, 1980: 855)، يُقصى الناس منها، مع أن وجودهم كان قد خلف أثرًا فيها. ويُعدّ هذا 'الهجران من جانب الفلسطينيين'، والذي يجري التعبير عنه في مصطلحات من قبيل 'قرية مهجورة' و'منازل مهجورة'، إشكاليًا بسبب الصور التي تُظهر 'مخيمًا يثير الشفقة' وبيوتًا مدمرة يجري العمل على إعادة بنائها. فالناس الذين يهجرون منازلهم ويهربون بسبب الرعب والخوف لا يدمرون قريتهم عن بكرة أبيها قبل أن يغادروها، خصوصًا عند يبيّتون النية للعودة إليها. وقد تشكل هذه المفارقة نقدًا مبطنًا لمؤلف الكتاب.[٨]

ويكرس كتابان، وهما كتاب «خمسون عامًا من الحروب والأمل» (Inbar 2004) وكتاب «وجه القرن العشرين» (Blank 2006) – اللذان توصي بهما وزارة التربية والتعليم بشدة – مساحة كبيرة لإقناع القارئ بأن إسرائيل لم تضطلع بأي دور في فرار الفلسطينيين وبأن مشكلة اللاجئين ليست 'مشكلتنا'.

ويخصص كتاب «خمسون عامًا من الحروب والأمل» (Inbar 2004) ثلاث صفحات ونصف منه (٢٠٢-٢٠٤) للحديث عن 'مشكلة اللاجئين' – حيث يصفها باعتبارها «فرارًا جماعيًا للعرب [...] لم تكن القيادة الصهيونية تتوقعه ووجدت صعوبة في فهم الدوافع التي كانت تقف وراءه' (ص. ٢٠٢). ومع أن هذا النص لا يدحض الرأي العام حول مجزرة دير ياسين (١٩٤٨) التي شكلت الدافع وراء هذا الهروب «الذي لفه الفزع»، حيث يقول الكتاب في هذا الصدد أنه «من المحتمل أن الشائعات التي سرت حول مجزرة (وليس «المجزرة» على وجه التعريف) وقعت في دير ياسين شجعت الفلسطينيين على التخلي عن مساكنهم». ويؤكد الكتاب على أن «غزو دير ياسين لم يمثل أي سياسة ولم يعكس أي إستراتيجية اعتمدتها المؤسسات الصهيونية أو قيادة الهاغاناه (الميليشيا اليهودية)». ويعرض الكتاب، في نوع من التعريض، «الرواية الفلسطينية للهروب الجماعي»، ويؤكد أن مروجي هذه الرواية لا يقتصرون في معظمهم على مؤرخين غير يهود، بل يضمون يهودًا من حقبة ما بعد الصهيونية، قبل أن يدعي بأن «هذا التفسير لا يحتمل اختبار التوثيق» (ص. ٢٠٢). ويعيد الكتاب سرد الحجة التي كانت سائدة في العقد الخامس من القرن الماضي، حينما لم يكن من الممكن الوصول إلى الأرشيف العسكري أو أرشيف الدولة، والتي تقول بأنه «كانت هناك حالات من تصفية الحسابات التي استهدفت تسوية الضغائن السابقة، والتي وجدت التعبير عنها في طرد الجيران غير المرغوبين، ولكن هذه الحالات كانت قليلة». وفضلاً عن ذلك، يستشهد الكتاب بقصة وردت عن رئيس الوزراء بن غوريون الذي زار قرية «سلامي» القريبة من تل أبيب في يوم ٣٠ نيسان ١٩٤٨، حيث التقى امرأة عمياء متقدمة في السن تُركت وحدها في القرية. وبعد أن استفسر عن سبب ترك هذه العجوز العمياء وحدها، «أخبره ممثلو الوكالة اليهودية عن الفرار». و«زُعم أن بن غوريون، الذي كانت مناصرته القوية للتطهير العرقي معروفة وثابتة على مدى ٢٠ عامًا أو يزيد، سأل «أين ذهب جميع العرب؟» (Pappe 2007)

وعلى الرغم من أن «أحد ممثلي الوكالة اليهودية قال إن أمرًا وُجِّه إليهم 'من الأعلى' بالمغادرة»، فقد كانت هذه الفرضية «تستند إلى أسس واهية وكانت تنبع من الصعوبة التي اعترت تفسير هذه الظاهرة». ويتابع الكتاب هذه القصة بطرح هذا السؤال: «ما هي الأسباب التي أدت إلى 'فرار' العرب؟» ويقدم بعض الإجابات المحتملة عن هذا السؤال: الخوف من فقدان الحكومة والفوضى وانهيار الاقتصاد والحرب. ويشدد النص

على المساعي التي بذلتها الحكومة على مدى السنوات الخمس والخمسين الماضية في إقناع العالم بوجوب تسوية هذه المشكلة في الدول العربية، وليس في إسرائيل، 'التي استوعبت اللاجئين اليهود الذين طُردوا من الدول العربية'.

ويلمح الادعاء الأخير الذي يسوقه هذا النص إلى الرسالة التي دأبت إسرائيل على بثها، والتي تقول إن اللاجئين الحقيقيين هم اليهود دون غيرهم:

«يدعي الزعماء العرب أنه لا يمكن وقف الأعمال العدائية قبل السماح بعودة اللاجئين إلى ديارهم، وذلك على الرغم مما حدث في أوروبا.»

٢- الافتراضات المقترحة: ما يمكن أن يكون عليه الحال أو ما سوف يكون عليه:

تصرح الكتب المدرسية المتداولة في إسرائيل بأن المواطنين الفلسطينيين يمثلون مشكلة ديموغرافية قد تتحول إلى تهديد ديموغرافي و «كابوس ديموغرافي» (Barnavi 1998) ما لم يجرِ التحكم بها.

والتهديد الديموغرافي هو السبب الذي يحول دون السماح بعودة اللاجئين الفلسطينيين:

[عقب صدور قرار الأمم المتحدة رقم (١٩٤) في العام ١٩٤٨ بشأن عودة ما يقرب من ٦٠,٠٠٠ لاجئ]

«لم يكن الوقت في صالحهم. فالقرى كانت قد سُوِّيت بالأرض، والبيوت العربية التي بقيت بعد عمليات 'التدمير' نالت التسمية القانونية «ممتلكات مهجورة»، وجرى إسكان المهاجرين اليهود في المناطق «المهجورة.» (Blank 2006: 347)

ولذلك، يتعلم الطلبة تجاهل 'الدراما الأخرى' - وهي تلك الدراما المتعلقة بالضحايا - والتغاضي عن القوانين والقرارات الدولية وغض الطرف عن الظلم الواقع والنظر إلى النتائج التي تفضلها الدولة الإسرائيلية-اليهودية. وحسب التفسير الذي يسوقه باومان (Bauman 1989: 99)، «لا يعدّ التخلص من الخصم غاية في حد ذاته. بل وسيلة تفضي إلى غاية: ضرورة تنبع من الهدف النهائي، خطوة ينبغي للمرء أن يقدِم عليها إذا أراد أصلًا أن يبلغ نهاية الطريق. إن الغاية نفسها هي رؤية شاملة لمجتمع أفضل، ومختلف اختلافًا جذريًا.»

وتشكل هذه الافتراضات جانبًا من الرواية القومية الإسرائيلية أو مما يعرّفه الباحثون على أنه «الأساطير الصهيونية المؤسسة لإسرائيل» (Pappe, Piterberg, Sternhal)، والتي لم يطرأ عليها تغيير على مدى سني عمر الصهيونية الذي يناهز مائة عام.

٣- افتراضات القيمة: ما الذي يُعدّ جيدًا ومرغوبًا. دولة يهودية، أغلبية يهودية، سيطرة إسرائيلية؟

يكمن السؤال المطروح في أنه كيف لإسرائيل أن تحافظ على أغلبية يهودية في الوقت الذي يشكّل فيه السكان الفلسطينيون الخاضعون لهيمنتها ما يقرب من نصف العدد الكلي للسكان فيها؟ وهذا السياق هو ما تنطبق عليه استعارة البستنة أكثر من غيره. فحسبما يرد على لسان باومان (Bauman 1989: 92): «تعرِّف جميع الرؤى التي تنظر إلى المجتمع بوصفه بستانًا الأجزاء التي تؤلف الموئل الاجتماعي كما لو كانت أعشابًا ضارة بشرية. ويجب عزل هذه الأعشاب الضارة، واحتواؤها ومنعها من الانتشار وإزالتها وإبقاؤها خارج حدود المجتمع. وفي حال ثبت انعدام كفاية هذه الوسائل بمجموعها، فينبغي قتلها.»

«الأغيار» في إسرائيل

في إسرائيل نوعان من الأغيار: يشمل النوع الأول الأغيار اليهود وغير العرب الذين لا يعدُّون سكانًا أصلانيين مستعمَرين، وإنما مهاجرين لم تفتأ إسرائيل تستوردهم على مدى السنوات السبعين المنصرمة من أجل المحافظة على التفوق الديموغرافي ضمن 'حدود' الدولة. وحسبما جاء على لسان باومان (Bauman)، يجب «تربية هؤلاء بحب»، أو قولبتهم لكي يتناسبوا مع المجتمع اليهودي الديموقراطي الذي أُعدت الخطط لإقامته. ويتعين على هؤلاء أن يغيروا أسماءهم، وأن ينسوا لغتهم وثقافتهم وموسيقاهم وأعرافهم الدينية وكل شيء آخر يندرج ضمن 'التراث الثقافي'. ولا يشكل «ضحايا الصهيونية» هؤلاء (Shohat 1971) موضوع هذه الورقة. و«الأغيار» الآخرون هم العرب الفلسطينيون، الذين يجب إبعادهم أو استئصالهم. ويتعرض الأغيار بشقيهم للتهميش والإقصاء من المجتمع الإسرائيلي الرئيسي، ويرد إقصاؤهم في تمثيل بليغ في الكتب المدرسية الإسرائيلية، حيث يظهر ذلك في سلسلة الكتب المدرسية، التي تحمل عنوان «العيش معًا في إسرائيل: كتاب دراسي في دراسات الوطن والمجتمع والدراسات المدنية» (Living together in Israel a textbook in Homeland Studies, Society and Civics)، المخصصة للصف الثاني حتى الصف الرابع والـذي نشره مركز التقنيات التربوية في العام ٢٠٠٦، حيث يجري إقصاء أطفال الفلسطينيين والأثيوبيين اليهود والبدو الدروز الذين يعيشون في إسرائيل بصورة تامة من النصوص الرئيسية التي تتناول 'الحياة الإسرائيلية' وصورها، ويُحصر وجود هؤلاء الأطفال في

في إسرائيل نوعان من الأغيار: يشمل النوع الأول الأغيار اليهود وغير العرب الذين لا يعدُّون سكانًا أصلانيين مستعمَرين، وإنما مهاجرين لم تفتأ إسرائيل تستوردهم على مدى السنوات السبعين المنصرمة من أجل المحافظة على التفوق الديموغرافي ضمن 'حدود' الدولة. وحسبما جاء على لسان باومان (Bauman)، يجب «تربية هؤلاء بحب»، أو قولبتهم لكي يتناسبوا مع المجتمع اليهودي الديموقراطي الذي أُعدت الخطط لإقامته. ويتعين على هؤلاء أن يغيروا أسماءهم، وأن ينسوا لغتهم وثقافتهم وموسيقاهم وأعرافهم الدينية وكل شيء آخر يندرج ضمن 'التراث الثقافي'.

'نوافذ' (windows) مؤطَّرة بإحكام وتأتي في ألوان مختلفة، كما لو كانوا عينة منزوعة من السياق وتحمل وسمًا خاصًا من بين 'الأقليات' أو 'الإثنيات' التي تخضع للملاحظة. وليس هناك من علاقة تربط الأطفال المذكورين ببقية أفراد السكان، فلا نصيب لهم في الحياة والعالم اللذين تستعرضهما سلسلة الكتب تلك. ويُعرض على غلاف كل كتيّب من هذه السلسلة رسم ملون لأشخاص من جميع الأعمار، بحيث يمثلون سكان إسرائيل. ولا أحد من هؤلاء الأشخاص عربي أو أسود أو حتى ذو بشرة قمحية كاليهود 'الشرقيين' الذين يشكلون الأغلبية في إسرائيل. ويقدم كل كتيب من كتيبات السلسلة المذكورة 'عصابة' من الأطفال الذي يعملون بمثابة أدلّاء ويأخذون القارئ في رحلة في ربوع إسرائيل للالتقاء بالناس والتعرف على الأماكن فيها. وجميع الأطفال الذين ينضوون في هذه العصابة وُلدوا في إسرائيل، باستثناء طفلة شقراء واحدة اسمها ساشا – وهو ما يلمّح إلى النجاح الذي حققته إسرائيل في استيعاب اليهود الروس. ويجري تمثيل الأطفال العرب والدروز والإثيوبيون، الذي ورد ذكرهم في 'النوافذ' المؤطرة بإحكام، باعتبارهم أنواعًا 'أخرى' من الناس. وفي هذا المقام، يسرد فصل يرد تحت عنوان «من الصعب أن تكون مختلفًا في بعض الأحيان» في الكتيب المقرر للصف الثاني لقاءً بين ولد إسرائيلي (يهودي، أبيض) وولد فرنسي، وهو ما يتضمن في معناه أن يسافر المرء إلى بلد آخر لكي يشعر 'بالاختلاف'. ويتلو هذا الفصل مباشرةً 'نافذة' ملونة عنوانها «لقاء مع...»، حيث نقرأ قصة تسرد حياة سندس، وهي فتاة من قرية طوبا العربية في وادي الحولة. وتتحدث سندس عن قريتها وأسرتها دون أن تأتي على ذكر أي ارتباطات بينها وبين القرى اليهودية والكيبوتسات التي تقع حولها، كما لو كانت هذه القرية والأسرة عبارة عن جزيرة تقع في حيز خارج عن السياق. وترد هذه الرواية نفسها على لسان محمد، الفتى البدوي، وغيلا، الفتاة الإثيوبية التي فُرض عليها تغيير اسمها إلى اسم عبري على خلاف الفتاة الروسية، ومع ذلك فهي لا تشكل جزءًا من المجتمع الإسرائيلي. وبهذه الطريقة، يتعلم الأطفال الإسرائيليون باللفظ والصورة أن كون المرء فلسطينيًا ودرزيًا وبدويًا ويهوديًا إثيوبيًا يعني أنه مهمش ومقصى من الحياة العامة في وطنه.

ووفقًا لما يفترضه باومان (Bauman 1989: 191)، تساعد هذه الكتب في «تقسيم المجتمع بعمومه إلى قسمين – قسم غير موسوم وقسم موسوم. فالموسومون يشكلون فئة مختلفة، بحيث أن ما يسري عليها لا يسري على جميع الفئات الأخرى. فمن خلال فعل التعريف نفسه، باتت هذه الجماعة مستهدفة بمعاملة خاصة؛ فما يعد لائقًا بالنسبة إلى أناس 'عاديين' لا يعد لائقًا بالضرورة بالنسبة إليها.»

وحسبما يبين هذا المثال، لا ينتمي المهاجرون الروس إلى الجماعة اليهودية على الرغم من 'غيريتهم'. وتثبت هذه الميزة بجلاء في الرسم البياني أدناه، الذي يستعرض الفئات العمرية ويأتي تحت عنوان: «السكان اليهود مقابل السكان العرب» في كتاب «جغرافيا أرض إسرائيل» (The Geography of the Land of Israel)، حيث نجد «اليهود والأغيار» في الهرم 'اليهودي'. وبما أن المواطنين الفلسطينيين يُعرَّفون في جميع الكتب بصفة 'السكان غير اليهود / القطاع غير اليهودي'، يبقى السؤال: من هم هؤلاء «الأغيار» الذين يستحقون أن يُدمجوا ضمن الجماعة اليهودية؟ ولا ينبس هذا الكتاب ببنت شفة عن ذلك، بيد أن الاستنتاج البسيط مؤداه أن هؤلاء ليسوا يهودًا ولا عربًا، وبالتالي فهم يستطيعون أن ينضووا تحت راية 'جماعتنا'. وفي الواقع، فهؤلاء هم المهاجرون الروس غير اليهود (الذين يقرب تعدادهم من ٣٠٠,٠٠٠ نسمة)، ويرد

تعريفهم في السجل المدني بوصفهم 'أغيارًا'. ومن الناحية البصرية، ففي الوقت الذي يجري فيه تصوير جماعة «اليهود والأغيار» بوصفهم أنواعًا قوقازية بيضاء ليس لها صفات يهودية، يصوَّر العرب في أيقونات عنصرية، من قبيل شخصية علي بابا الخيالية مع جمله وزوجة له جاثمة على الأرض. وعلى الرغم من أنه لا يوجد من العرب في إسرائيل أو فلسطين من يشبه هذا التوصيف، فصورتهم النمطية تلك تظهر في أي موضع يأتي على ذكر المواطنين العرب.

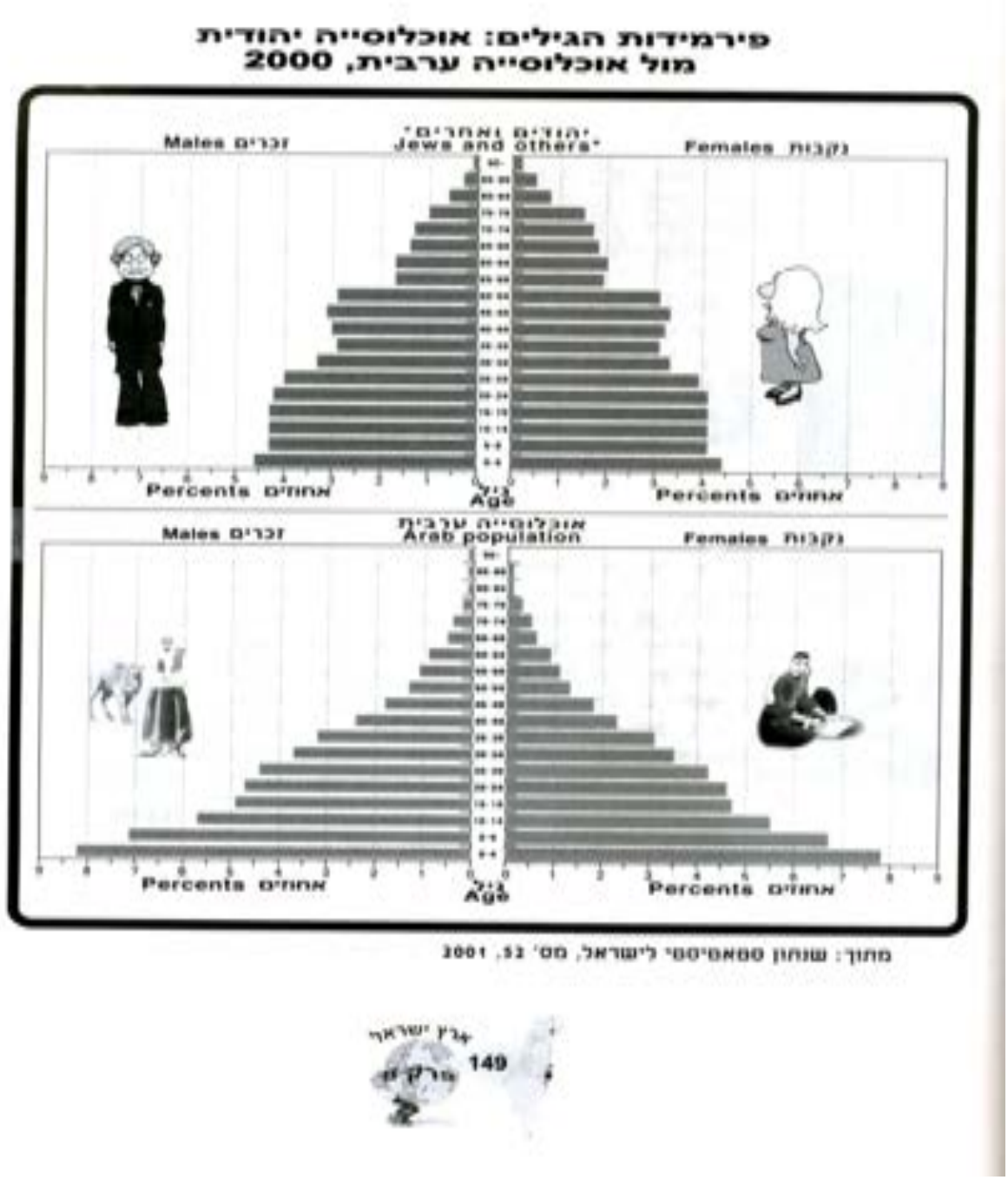

الصورة رقم (٣): جغرافيا أرض إسرائيل (Geography of the Land of Israel)

الصورة رقم (٤): «يرفض العرب السكن في البنايات المرتفعة ويصرّ الواحد منهم على السكن في منزل من طابق واحد على قطعة أرض مرتفعة.»

التنميط

يرى لويد (Lloyd 2012: 271) أن «العنصرية الكولونيالية تتألف من ثلاثة مكونات أيديولوجية رئيسية: أولها الخليج الذي يفصل ثقافة المستعمِر عن المستعمَر، وثانيها استغلال هذه الاختلافات لمصلحة المستعمِر، وثالثها توظيف هذه الاختلافات المفترضة كما لو كانت معايير الحقيقة المطلقة.»

وعندما يُنظر إلى الاختلافات المفترضة على أنها معايير الحقيقة المطلقة، يُصار إلى تمثيل «المختلفين» من خلال الصور النمطية.

ويسهم التنميط البصري للمواطنين الفلسطينيين الإسرائيليين بوصفهم بدوًا رحلًا بدائيين وأسطوريين في تغذية الإدراك الذي يرى أن المستعمَر لن يبقى هنا لفترة طويلة، ناهيك عن التصور الإسرائيلي الذي يرى أنه طالما كان الفلسطينيون بدوًا رحلًا عربًا، فهم يستطيعون أن يذهبوا إلى أي قُطر عربي آخر، مع إبلهم.

ويعزو بابيه (Pappe 2017: 46) هذا التعريف الذي تلصقه إسرائيل بصورة عربي لا وجود له إلى ما يسميه الانطباعات الأولى:

«يبدو أن الأبحاث في علم النفس تتفق على أن الانطباعات الأولى التي تتولد حول الأحداث تفرز تأثيرها على طريقة تفسيرنا للانطباعات اللاحقة والمعلومات الجديدة [...] ويبدو أنه عندما تتعلق الانطباعات الأولى بمسائل لها صلة بـ'الإثنية' أو 'العرق'، فهذه الانطباعات تبقى ثابتة. أما عندما يقترن الأمر بصراع قاسٍ وواقع يسوده العنف، فمن المؤكد أن الفرص المتاحة لإعادة تقييم تلك الانطباعات الأولى تتضاءل. وفي هذا المقام، لم تتحرك الانطباعات الأولى اليهودية سوى قدرًا ضئيلًا، إن هي شهدت تحركًا على الإطلاق. فما تزال الانطباعات الأولى التي تولدت لدى الجماعة الرئيسية التي تؤلف المشروع الصهيوني قائمة، وهي ما تزال تهيمن على الخطاب الإسرائيلي الراهن الذي يتناول ذات السكان

الأصلانيين الذين التقوا بهم للمرة الأولى في مطلع القرن العشرين. وتتمسك إسرائيل الرسمية، جنبًا إلى جنب مع شرائح واسعة من المجتمع الإسرائيلي، بهذه الانطباعات الأولى.»

وبما أن أيًا من الفلسطينيين لم يَبدُ على هذا النحو على الإطلاق، ففي وسعنا أن نفترض أن هذه «الانطباعات الأولى» وُلدت من رحم الرسومات الأوروبية التي صورت علي بابا، حتى قبل أن يحط الصهاينة رحالهم في فلسطين. وما تنفك منظومة التعليم الإسرائيلية اليوم تعزز هذه الصورة النمطية الخيالية وتروجها. ويشكل التمثيل النمطي جزءًا مما يسميه المؤرخ إيلان بابيه المنطق الذي يقوم على نزع السمات الإنسانية والذي يربط منطق الإقصاء، أو بالأحرى يفعله. ولا يعني نزع السمات الإنسانية، في جميع الأحوال، إظهار مخلوقات متوحشة وشريرة مثلما كان عليه الحال في تصوير اليهود في البروباغاندا النازية، بل يعني أيضًا تعريف «الأغيار» وإظهارهم كجماعة مختلفة ينبغي التعامل معها من خلال نظام بيروقراطي مختلف (Bauman 1989, Berda, 2012).

فمن خلال نزع السمات الإنسانية، «يجري تحويل المستعمَرين إلى عرق دونيّ» (Balibar 1990) ويصار إلى تمثيل هذه الدونية في صور نمطية.

وفضلًا عما تقدم، «لا يمكن للأعيان التي تنتزع السمات الإنسانية عنها أن يكون لها 'قضية'، ناهيك عن قضية 'عادلة'. فليس لهذه الأعيان 'مصالح' توضع في عين الاعتبار، وليس لها بالتأكيد أي ادعاء بالصفة الذاتية التي تسمها. ولذلك، تتحول الأعيان الإنسانية إلى 'عامل يثير الإزعاج' (١٩٨٩: ١٠٤).

«وتمثل أي علامات تبقى على الوجه علامات تدل على العضوية، وإشارات تدل على الانتماء إلى فئة ما، والقدر المقسوم لصاحب ذلك الوجه لا يزيد ولا ينقص في الوقت نفسه عن معاملة صاحب الوجه بوصفه عينة لا أكثر [...] والعجز الروحي أو «الرذيلة» التي تعزى إلى المستعمَر أو العرق الدونيّ يجري «التعبير عنها بوصفها سمة من السمات الوراثية أو سمات الدم» (Bauman ١٩٨٩: ٢٢٧). وفي هذا السياق، نستعرض فيما يلي أمثلة من كتاب الجغرافيا ذاته:

«المجتمع العربي مجتمع تقليدي من طبيعته مقاومة التغيير، ويعارض تبنّي التجديد [...] ويبدو أن التحديث يعدُ خطيرًا بالنسبة إليه [...] وهم يمانعون التنازل عن أي شيء للصالح العام.»

«ليس هناك من معارضة في الوسط اليهودي لتخصيص بعض الأراضي الخاصة لغايات البناء العام. وفي المقابل، يسود في الوسط العربي توقُّع يرى أنه يجب تقديم جميع الخدمات والاحتياجات العامة من احتياطي الأراضي التي تملكها الدولة.» (ص. ٣٠٣)

توظيف الخطاب العنصري

حسبما يرى وولف (Wolfe 2006: 24)، «دأب التطهير العرقي والاستيطان الكولونيالي على توظيف القواعد الناظمة للعرق، حسبما جرت عليه ممارسة الأوروبيين.» ويعدّ التمثيل النمطي سمة من سمات الخطاب العنصري الذي «يلخص ويرمز إلى العلاقة الأساسية التي توحد المستعمِر والمستعمَر». فبموجب التفسير الذي يسوقه ألبرت ميمي (Albert Memmi)، لا يشكل هذا التمثيل 'تفصيلًا عارضًا'، وإنما 'محورًا من محاور الكولونيالية ويتساوى في جوهره معها.' (Lloyd ٢٠١٢: ٢٧٦).

ويبين باومان (Bauman 1989: 66) أن «العنصرية لا تقوم بذاتها إلا في سياق تصميم المجتمع الكامل وإبداء النية في وضع هذا التصميم موضع التنفيذ من خلال مسعى أُعدت خطته ويتسم بالانتظام. [...] وفي حال سمحت الظروف، تشترط العنصرية وجوب إقصاء الفئة المعتدية خارج حدود الإقليم الواقع تحت احتلال الفئة التي تعتدي عليها. ولو كانت هذه الظروف غائبة، تستدعي العنصرية استئصال الفئة المعتدية واطّراحها من الناحية المادية.»

ويشدد باومان على أن «العنصرية تعلن أن فئة من الناس تبدي مقاومة مستميتة ويائسة في وجه السيطرة، إلى حد تكون فيه عصية على جميع المساعي التي ترمي إلى التخفيف من حدتها. غير أن العنصرية تشكل سياسة في المقام الأول، وأيديولوجية في المقام الثاني. وهي تحتاج، شأنها شأن السياسة بعمومها، إلى التنظيم، والمديرين والخبراء.»

وفي شأن العنصرية التي يمارسها الاستيطان الكولونيالي، يرى وولف (Wolfe) أنه «فيما يخص الشعب الأصلاني، فحيثما يكونون هو ما يشكل هويتهم.» وعلى هذا المنوال نفسه، يتحدث ثيو غولدبيرغ (Theo Goldberg 2008) عن عرقنة الفلسطينيين، حيث يتعرضون للإبعاد والقتل لأسباب تتعلق بالمكان الذي يوجدون فيه. فهم يقتَلون لأن أرضهم محطّ أطماع الآخرين (أم الحيران، ٢٠١٧)[٩] أو بسبب الوظائف التي يؤدونها في المنظمات الفلسطينية (أحد المقاتلين في حركة حماس، ٢٦ آذار ٢٠١٧)[١٠] أو لأنهم يجتازون طريقًا يقتصر السفر عليه على اليهود دون غيرهم (طفل وشقيقته في قلنديا، ٢٠١٦)[١١] أو لأن أحدهم يُزعم أنه يحمل سكينًا في يده (نوف، ١٤ عامًا، حزيران ٢٠١٧).[١٢] كما يوضع الأطفال

ويشدد باومان على أن «العنصرية تعلن أن فئة من الناس تبدي مقاومة مستميتة ويائسة في وجه السيطرة، إلى حد تكون فيه عصية على جميع المساعي التي ترمي إلى التخفيف من حدتها. غير أن العنصرية تشكل سياسة في المقام الأول، وأيديولوجية في المقام الثاني. وهي تحتاج، شأنها شأن السياسة بعمومها، إلى التنظيم، والمديرين والخبراء.»

في الأسر ويتعرضون للقتل والحرق والتشويه، في ظل الإفلات من العقاب، بسبب ما سوف يصبحون عليه عندما يبلغون أشدهم.[١٣]

وحسبما تبيّنه الشواهد الواردة أعلاه، فما تفتأ الكتب المتداولة في المدارس الإسرائيلية تكرر الخطاب العنصري بشقيه اللفظي والبصري في تصوير المواطنين الفلسطينيين. فهذه الكتب «تضعهم في هرمية تراتبية تشرعن التفوق اليهودي، الذي يسوغ استئصال المستعمَر أو استغلاله وتشرعن المزايا التي يحظى المستعمِر بها، وعلى حد تعبير ميمي (Memmi) 'سلب' أرض الأصلانيين وأملاكهم» (Lloyd، المصدر السابق).

وتفترض يائيل بيردا في كتابها «بيروقراطية الاحتلال» المنشور في العام ٢٠١٢ (Yael Berda (2012), The Bu-reaucracy of Occupation) أن البيروقراطية القمعية الإسرائيلية في فلسطين المحتلة تقوم على العرق في أساسها: «تحدد الهرمية التراتبية للعرق الأعمال القانونية والإدارية التي ترتكز السيطرة على السكان عليها.»

كيف تمثل الكتب المدرسية الأغيار الذين يجري تصنيفهم على أساس العرق؟

١. من خلال الإحجام عن تمثيلهم على الإطلاق في السياقات التي يوجدون فيها على أرض الواقع، وحيث يعيشون ويعملون.
٢. من خلال تصوير الأشخاص بوصفهم عوامل مؤثرة في الأفعال، حيث يُنظر إليهم بالقليل من الاحترام ويُعتبرون خانعين أو منحرفين أو مجرمين أو أشرارًا.
٣. من خلال إظهار الأشخاص بوصفهم جماعات متجانسة، وبالتالي إنكار سماتهم الفردية والاختلافات الموجودة بينهم.
٤. من خلال الإمعان في إضفاء الدلالات الثقافية السلبية.
٥. من خلال الصور النمطية العرقية.

(Van Leeuwen 2001: 349)

وتظهر الإستراتيجية الأولى بجلاء في الخرائط من خلال رسم خرائط الإقصاء (Henrikson 1994: 60).

الصورة رقم (٥): السكان العرب في إسرائيل، ٢٠٠٠ (كتاب «إسرائيل: الإنسان في المكان» (Israel-Man and Space))

تُظهر هذه الخارطة «السكان العرب»[١٤] داخل دولة إسرائيل، دون أن تُظهر مدينة عربية واحدة، بما فيها مدينتا الناصرة وعكا. وبناءً على ذلك، يثور الانطباع بأن هؤلاء «العرب» يعيشون في 'مدننا'، وبين ظهرانينا، وهم يعتدون علينا، وهذا أمر لا يمكن التسليم به في إسرائيل. وترد صورة الضفة الغربية، التي تظهر بلا لون، باعتبارها «منطقة لا تتوفر بيانات بشأنها»، وهو ما يعني، في لغة خرائط توزيع السكان، أنه قد لا يكون للعرب أي وجود فيها.

وفي كتاب «الناس في المكان» (People in Space) (ص. ٧٦)، يستطيع رسم بياني أن يصور متوسط عمر الزواج بين النساء على أنه أحد الخصائص المرتبطة بالتنمية، ويضع هذا الرسم إسرائيل في آخر خانة في سلسلة من 'البلدان المتقدمة' بفضل الحاشية التالية التي تظهر بخط صغير: «يشير الرسم البياني إلى السكان اليهود دون غيرهم.»

الرسم البياني رقم (٦): متوسط عمر الزواج بين النساء في عدد من الدول، ١٩٩٠

بإذن من مركز التقنيات التربوية
(Centre for Educational Technologies)

الصورة رقم (٧): جباليا – مخيم للاجئين في منطقة غزة. أحد أكبر مخيمات اللاجئين، التي تشهد الاكتظاظ ويعيش سكانها في فقر مدقع، وحيث مستويات النظافة العامة والتعليم متدنية.

ويظهر الإحجام عن إظهار الفلسطينيين في الأماكن التي يعيشون فيها بجلاء في الصور، مثلما رأينا. ففي فصل عنوانه «لاجئون يفرون خوفًا على حياتهم» من كتاب «الناس في المكان»، يرى القارئ هذه الصورة التي ترد في سياق قصص وصور ترصد لاجئين من جميع أنحاء العالم، وصور أخرى مقرَّبة للاجئين اليهود:

ولكن الناس، الذين يجري تصوير بؤسهم كما لو كان واقعًا طبيعيًا، لا يمكن رؤيتهم. وفي هذا السياق، يسمي فان لووين (Van-Leeuwen, 1992: 49) هذا التصوير الجوي:

«زاوية الطيار الذي يطير على مسافة مرتفعة جدًّا لا يستطيع معها أن يرى الناس الذين يرمي قنابله عليهم [...] فهذه هي زاوية 'المعرفة الموضوعية' التي تتسبب في اختفاء التفاصيل (والناس) – وهذا هو النوع من المعرفة الذي ما يزال التعليم معنيًّا بإنتاجه بصورة رئيسية.»

تمثيل الاحتلال

تكاد الكتب المتداولة في المدارس الإسرائيلية لا تناقش الاحتلال، تمامًا كما هو حالها في الإحجام عن نقل أي معلومة عن عالم حياة الفلسطينيين. ومع ذلك، يأتي كتاب «المضيّ في الطريقة المدنية» (Going the Civilian Way) (٢١٠٢) على ذكر بعض الممارسات السائدة في هذا العالم بصورة مجردة، حيث يجد ما يسوغها في كوننا «ديموقراطية تدافع عن نفسها.»

ولا تحوي الصفحة (١٨٦) سوى نص لفظي يتضمن تعريفًا لإسرائيل بوصفها دولة ديموقراطية تدافع عن نفسها ويستعرض قائمة بالتراخيص التي ينطوي هذا التعريف عليها. ويبين النص أنه يجوز للدولة الديموقراطية التي تدافع عن نفسها أن تستخدم أي تدبير تراه مناسبًا من أجل حماية مواطنيها من الإرهابيين المحتملين ومناصريهم. وبناءً على ذلك، تعد الممارسات التي ينفذها الاحتلال مشروعة، من قبيل الحواجز العسكرية، والاغتيالات المستهدفة، والاعتقال الإداري («اعتقال شخص دون تقديمه للمحاكمة ودون تمكينه من الالتقاء بمحام له لفترة غير معلومة من الزمن»)، وهدم المنازل، ومصادرة الأراضي، وفرض حظر التجوال واستخدام الضغط الجسدي والنفسي بقدر معتدل («وليس التعذيب»). وعلى الهامش الأيمن من الصفحة المذكورة، يُطلب إلى التلاميذ النظر إلى الجرائد والمواقع الإلكترونية على شبكة الإنترنت للاطلاع على المزيد من المعلومات حول «الرقابة الأمنية» وذِكر فائدة واحدة وعيب واحد في استخدام هذه التدابير.[١٥] وتظهر الهوامش التي نراها على الجانب الأيسر من الصفحة أعلاه في مظهر مبهج وطفولي، حيث القرد الماكر الذي يلعب بالأزرار والبوم الحكيم الذي يحاول أن يتعلم عن الاعتقال الإداري. وتظهر في أعلى الصفحة مجموعة من الأطفال، الذين يشبهون الغربيين في ملامحهم، حيث البسمات تعلو محياهم ويبدون في سعادة غامرة وهم يتعلمون عن الدولة الديموقراطية التي تدافع عن نفسها والتي يعيشون فيها.

ونرى في وسط الصفحة صورة لحاجز عسكري 'مفاجئ'، وهو نوع من الحواجز العسكرية التي تقام بصورة عشوائية دونما تحذير مسبق. ويقع هذا الحاجز وسط مكان مجهول بين موديعين والقدس: حيث تظهر عدة مكعبات إسمنتية لم تُرتَّب بعناية ومجموعتان من الأشخاص الذين يتكئون عليها

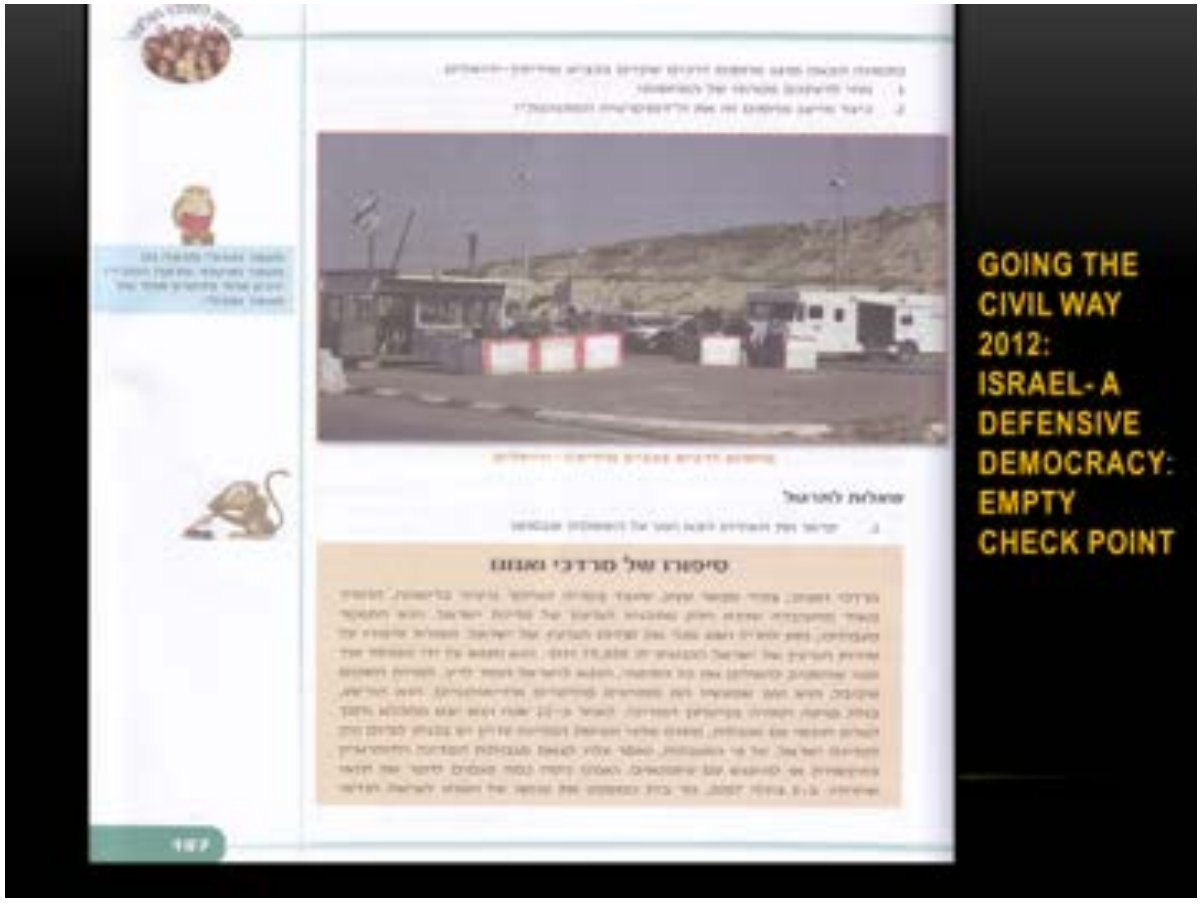

الصورة رقم (٨):

تقع هذه الصفحة على الجانب الأيسر. وبذلك، فهي تشكل الجزء الجديد من نص مطبوع على صفحتين متقابلتين (ص. ١٨٦–١٨٧) في فصل يرد تحت عنوان: «حق الدولة الديموقراطية في حماية نفسها.»

الصورة رقم (٩): حاجز قلنديا. بإذن من تامار فليشمان (Tamar Fleishman)

بأريحية ويتجاذبون أطراف الحديث فيما بينهم. وبعض هؤلاء الأشخاص أفراد من الشرطة وبعضهم جنود. ويرى القارئ مركبة شرطة فارغة، وعلم إسرائيل يرفرف فوق مقصف ومنحدر جبلي مكشوف في الأفق. وليس في وسع القارئ إلا أن يفترض وجود الناس الذين أقيمَ هذا الحاجز لعوق حركتهم. وقد يكمن الدافع وراء اختيار هذه الصورة في الرغبة في تقديم الحاجز كما لو كان تدبيرًا وقائيا لا ينطوي على أي تهديد، وطمأنة الجنود الذين ينضمون إلى الجيش في المستقبل بأن 'إقامة الحواجز العسكرية' ليس بالأمر السيء. فالعدو غير منظور، أو قد يكون بعيدًا أو يختبئ بين الصخور، ولكن علينا أن نتوخى الحذر.

وفي الحقيقة، يختلف واقع الحواجز العسكرية الدائمة في إسرائيل تمام الاختلاف، ولكن صور هذه الحواجز الدائمة، من قبيل الصورة الواردة أدناه، لا تظهر لا في الكتب المدرسية ولا في وسائل الإعلام الإسرائيلية لأسباب جلية. وقد يكمن أحد الأسباب في أن مثل هذه الصور قد تثير الإرباك في نفوس الطلبة عندما يرون 'العدو' كأناس مثلنا:

فقد يدرك الطلبة أنه على الرغم من الاكتظاظ اليومي والضغط الذي لا يطيقه أحد في الحيز الضيق الواقع بين الأقفاص التي تشبه السجن والبوابات المعدنية الكهربائية، يبدو الناس «عقلانيين ومتعلمين، ويتمتعون بالصفات الإيجابية التي يميل الطلبة الإسرائيليون إلى ربطها بجماعتهم، و[...] من أبناء السكان الأصليين المتحضرين الذين يكسرون الصورة النمطية السائدة عنهم» (Rabinowitch 2001: 76). فهم لا يبدون مثل أناس يُحتمل أن يكونوا «متعطشين للدماء، ويتحرقون شوقًا لتنفيذ أعمال الانتقام العنيفة، ويُزَجّ بهم للعمل بما يتعارض مع مصالحهم إلا إذا ألحقوا الضرر والأذى بأكبر عدد ممكن من الإسرائيليين» (المصدر السابق). ومن شأن مثل هذه الصور أن تثير أسئلة قد لا تبدي منظومة التعليم الإسرائيلية الاهتمام في طرحها: هل هذا ما يبدو عليه الإرهابيون؟ كيف لك أن تفسر ذلك؟ هل جميع الفلسطينيين إرهابيون محتملون، بمن فيهم الأطفال والرّضّع؟

وبالعودة إلى الكتاب المدرسي المذكور، فالسؤال الذي يثور لدينا هو: ما المعنى الذي يحمله هذا التصميم باعتباره إشارة

إن تقديم ممارسات الاحتلال كما لو كانت حلقة من المسلسل الكرتوني «ويني ذا بوه» (Winnie the Pooh)، مع البوم والقرد (حيث لا يجوز مطلقًا أن يظهر خنزير صغير في كتاب مدرسي يهودي)، والأطفال الذين ترتسم الضحكات على وجوههم وتغمرهم السعادة وينعمون بالأمان، مع الجنود 'الرائعين' الذي يشعرون بالاسترخاء، يجعل كل ذلك يبدو مثل 'إجراء' معقول لا يفرز أي تهديد كان.

مركبة واحدة؟ لمصلحة من يقدَّم نظام الإغلاق والحواجز والاعتقال الإداري الذي لا نهاية له والسجن المؤبد والتعذيب والاغتيالات التي تنفَّذ خارج إطار القانون على هذا النحو الظريف الذي يبعث على السرور والبهجة؟ ما الذي تعلّمه هذه الصفحة؟

إن تقديم ممارسات الاحتلال كما لو كانت حلقة من المسلسل الكرتوني «ويني ذا بوه» (Winnie the Pooh)، مع البوم والقرد (حيث لا يجوز مطلقًا أن يظهر خنزير صغير في كتاب مدرسي يهودي)، والأطفال الذين ترتسم الضحكات على وجوههم وتغمرهم السعادة وينعمون بالأمان، مع الجنود 'الرائعين' الذي يشعرون بالاسترخاء، يجعل كل ذلك يبدو مثل 'إجراء' معقول لا يفرز أي تهديد كان.

ويفسر باومان (Bauman1989: 155) ذلك بقوله: «كلما كان تنظيم الإجراء أكثر عقلانية، كان التسبب بالمعاناة أيسر وأسهل – حيث يبقى المرء في سلام مع نفسه.»

وتتسم الأسئلة التي تتلو هذا الفصل الفرعي بالعقلانية وتقوم على معيار المنفعة في أساسها:

- ما الغاية من هذا الحاجز في رأيك؟
- كيف يمثل هذا الحاجز الدولة الديموقراطية التي تدافع عن نفسها؟
- يسمى الاعتقال الإداري الاعتقال الوقائي. بيّن السبب وراء ذلك.
- اذكر فائدة واحدة يؤتيها الاعتقال الإداري وعيبًا واحدًا يَسِمُه.
- وغني عن القول أن الطلبة لا يملكون أدنى فكرة عما يبدو عليه الاعتقال الإداري:

الصورة رقم (١٠):

https://palsolidarity.org/2013/04/palestinian-childrens-day/

ودون رؤية الناس الحقيقيين في البؤس الحقيقي الذي يعيشونه كل يوم، يتحول الفلسطينيون إلى عناصر لاشخصانية ومجردة. ويعدّ التجريد (Abstraction) الخطوة الأهم في عملية شرعنة الإقصاء 'التي تتسم بالعقلانية'.

ويبين باومان (Bauman) أنه في هذه العملية:

«يجب طمس الوجه المادي للفرد [...] ويكمن الأثر العام الذي يفرزه التجريد في أن [...] القواعد الأخلاقية والمهنية لا تتدخل في المواضع المرتبطة بالتعامل مع فئة من الفئات. فلا يجوز أن يشكل موضوعًا للافتراضات الأخلاقية سوى الناس. ويُنظر إلى هذه الأعيان الإنسانية بلامبالاة أخلاقية حال نزع السمات الإنسانية عنها بصورة فعلية، وبالتالي إلغاءها بوصفها ذوات محتملة لها مطالبات أخلاقية.» (المصدر السابق).

ويتيح التجريد «الإحالة (Reference) إلى الأشخاص بواسطة صفة تُعزى إليهم وتتجسد، في أحيان كثيرة، في اسم مجرد لا يتضمن الخاصية الدلالية «+ إنساني»، كما لو كانت هذه الإحالة إحالة إلى مشكلة مثلًا» (Van Leeuwen 2008: 46).

يقدَّم الفلسطينيون، في العادة، كما لو كانوا مشكلة: مشكلة اللاجئين، و«مشكلة تطويرية»، و«مشكلة ديموغرافية» و«تهديدًا أمنيًا». وغالبًا ما تشكل هذه المشاكل ظاهرة موجَّهة بذاتها (Self-directed phenomenon) ومستقلة عن الفعل أو السبب الإنساني.» (Van Leeuwen، المصدر السابق). فعلى سبيل المثال:

«على الرغم من أن إسرائيل خرجت منتصرة من حرب البقاء التي فُرضت عليها، فسوف تسمم المشكلة الفلسطينية، وعلى مدى فترة تتجاوز الجيل الواحد، علاقات إسرائيل مع العالم العربي ومع المجتمع الدولي (Barnavi 1999: 184). وترد السطور التالية في فاتحة فصل عنوانه: «الفلسطينيون - من لاجئين إلى شعب»:

«يستكشف هذا الفصل التطور الذي طرأ على المشكلة الفلسطينية، التي تقع منذ بداية المشروع الصهيوني في قلب النزاع القائم في الشرق الأوسط، والمواقف التي تسود في أوساط الجمهور الإسرائيلي فيما يتصل بهذه المشكلة وطبيعة حلها. («القرن العشرون») (Barnavi 1999: 244)

فالمشكلة قائمة هناك بنفسها. ولم يضعها أحد هناك. والأخطر من ذلك أن وسم شعب بأكمله على أنه 'مشكلة ينبغي إيجاد حل لها' في كتاب مدرسي مقرر في مدارس اليهود بعد فترة لا تزيد على ٧٠ عامًا من تسمية اليهود أنفسهم بـ'المشكلة اليهودية' ووقوعهم ضحايا للحل النهائي الذي استهدفهم يعدّ أمرًا يبعث على القلق والإزعاج البالغين. فلا يتسبب هذا التجريد في نزع السمات الإنسانية فحسب، بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك بخطوة، حيث يساوي بين وضع الفلسطينيين ووضع اليهود وغيرهم من الجماعات التي لم تكن مرغوبة في ألمانيا النازية، مما يفضي إلى شرعنة استئصالهم والقضاء عليهم.

وغالبًا ما ترد الأسباب التي تقف وراء استئصال الفلسطينيين والقضاء عليهم في سياق لغة طبية: «في وسع المرء أن يدرب الأعضاء 'السليمة' في الجسم ويشكّلها، ولكن لا يمكنه ذلك عند نمو السرطان فيه. فهذا الأخير يمكن 'تحسينه' من خلال تدميره فقط. فالسرطان أو الآفات أو الأعشاب الضارة لا تملك الخروج عما هي عليه.» (Bauman 1989: 72). وفضلًا عن ذلك، تحتكم العنصرية الإسرائيلية إلى الطب وتميل إلى وصف الفلسطينيين 'الذي تصنفهم على أساس عرقي' كما لو كانوا مشاكل صحية أو مخاطر تهدد البيئة. وفي هذا الإطار، يستذكر بابيه (Pappe 2017: 35) أن دافيد بن-غوريون، وهو أول من تقلد منصب رئيس الوزراء في إسرائيل، كان يصف العمال والمزارعين الفلسطينيين بعبارة «بيت ميحوش» ('مرتع موبوء يسبب الألم') وقد استحضر له دواءً شافيًا يتمثل في العمالة اليهودية. وغالبًا ما كانت تُستخدم عبارة «راعا حولا» ('المرض اللعين') في المباحثات الرسمية لوصف الأقلية الفلسطينية في إسرائيل على مدى سنوات الحكم العسكري [١٩٤٨-١٩٦٧]. وكان الدواء الشافي الذي استُخدم للقضاء على هذا المرض هو نفسه الذي استُخدم من قبل: البحث عن طرق تكفل التخلص منهم.[١٦] وكانت عبارة 'السرطان في قلب الشعب' عبارة ارتبطت بمؤلف نشر تقريرًا رسميًا أوصى فيه بإنفاذ تدابير صارمة ضد الفلسطينيين من أجل تهويد المناطق التي لم يزالوا يقيمون فيها.» ومؤخرًا، أوصت وزيرة العدل، شاكيد، بقتل الأمهات الفلسطينيات مع أبنائهن الإرهابيين: «يجب أن يتبعن أبناءهن. فلا شيء أكثر عدلًا من ذلك. يجب أن يذهبن، كما يجب أن تذهب المنازل التي ربين فيها الأفاعي. وبخلاف ذلك، فسوف ينشأ عدد أكبر من الأفاعي الصغيرة هناك.»[١٧] وفي هذا المقام، يقول باومان (Bauman 1989: 90) إنه لا مناص من قتل الأطفال لكي تستأصل 'عرقًا'.

الإنحاء باللائمة على الضحية

فيما يتصل بالأسباب التي تقف وراء الإقصاء والتمييز، توافَق فريق خبراء الأمم المتحدة لإدارة التنوع في الخدمة المدنية (٢٠٠١) في اجتماعه على الاستنتاجات التالية بشأن المسببات الاجتماعية التي تثير التحيز العنصري، والتي تعكس الواقع الإسرائيلي:

«في مجتمعات المستوطنين، حيث تتوافر الظروف التي تولّد تفاوتًا كبيرًا في القوة والممتلكات، [...] فالأفراد محرومون من الحصول على الوظائف والإسكان والمشاركة السياسية والتعليم وإدارة قطاع العدالة على قدم المساواة [...] ويحرم التمييز إحدى الجماعات من المعاملة المتساوية ويقدِّم تلك الجماعة بوصفها مشكلة. ومن ثم ينحي باللائمة على هذه الجماعة بسبب الظروف التي تعيش فيها، مما يؤدي إلى ترسيخ النظرية العنصرية.»[١٨]

كما يعدّ الفلسطينيون مذنبين بسبب التمييز الذي يطالهم، بالإضافة إلى تحملهم الذنب عن تخلفهم:

«عندما تذهب إلى الحرب، فليس لك أن تتحسر على هزيمتك.» (Diskin 2011: 200)

أو: «لقد جلب العرب هذا الأمر على أنفسهم لأنهم حاربوا اليهود ودفعوا بأنفسهم إلى التهلكة.» (Blank 2006: 323).

نحصّن أنفسنا في الداخل ونعزلهم في الخارج

تكمن الإجابة عن السؤال: «لماذا تمعن إسرائيل في حرصها على استئصال الفلسطينيين والقضاء عليهم؟» فيما يسميه أبادوراي (Appadurai) «مبدأ سيادة الأغلبية» (Majoritarianism) والقلق من النقص.

ويورد أبادوراي خمسة عناصر تسبب القلق من النقص وتثيره:

- شعور قهري ومصطنع بنزعة «نحن».
- الضبابية الاجتماعية.
- ازدهار نزعة النقاء القومي.
- مبدأ سيادة الأغلبية.

وترتبط هذه العناصر الخمسة ارتباطًا وثيقًا ببعضها بعضًا وتسهم في تشكيل ما يسميه أبادوراي الهوية القائمة على السلب والنهب (predatory identity)، ولا سيما في إسرائيل التي لا يجمع الإثنيات اليهودية المختلفة فيها سوى قدر ضئيل من القواسم المشتركة، عدا عن ديانتها وخوفها من «شوآه» (محرقة) أخرى، وبالتالي خوفها من «الأغيار».

و«يزدهر مبدأ سيادة الأغلبية في الحالات التي يستحوذ فيها وهم النقاء القومي على الأغلبية، في تلك المنطقة التي تلتقي فيها الكمية مع النوعية، ولا تعرِّفها بصورة وافية.» ويتملك هذه الأغلبية هوس القلق من النقص، الذي «يسبب الإحباط والغضب الذي يفرز أشكال الانحطاط الذي يصدمنا جميعًا، من ألمانيا إلى رواندا، ومن كوسوفو إلى مومباي،» (Appadurai 2006: 59)، وقد يضيف المرء إسرائيل إلى هذه القائمة.

وفي إسرائيل، يعادل الخوف من التحول إلى أقلية الخوف من وقوع محرقة جديدة. ولذلك، يجري طرح هذا الخوف في الكتب المتداولة في المدارس. فعلى سبيل المثال، تكفلت حرب العام ١٩٨٢ في لبنان «بإنقاذنا من أوسفيتش آخر» (Bar-navi 1998). ويكمن هذا الخوف في أن الأقلية الفلسطينية قد تتعاظم بحيث تتحول إلى أغلبية تعمد إلى ارتكاب الإبادة الجماعية [بحق اليهود]. ففي فيلم وثائقي اسمه «المعمل» (the Lab)[١٩]، يظهر الجنرال الإسرائيلي عميرام ليفين وهو يلقي محاضرة على جنود في ريعان الشباب:

«إن أهمية الكمية تفوق أهمية النوعية بشوط بعيد. عليكم أن تتوقفوا عن التفكير فيمن يستحق الموت ومن لا يستحقه. فقد وُلد جميع هؤلاء الناس ليموتوا على أي حال.»

وفي هذا السياق، يوصِّف انشغال إسرائيل إلى حد الهوس في التعداد والإحصائيات التي لا تنفك تعقد المقارنات بين السكان العرب والسكان اليهود، الكمية باعتبارها نوعية. «أعدادنا غفيرة، ولذلك فنحن ننعم بالأمان. وبالأحرى، ما لم نفوقهم عددًا، فلن ننعم بالأمان أبدًا.» (Appadurai ٢٠٠٦: ٥٩). وتقسم الكتب المدرسية جميع المعلومات التي ترد فيها إلى العرب مقابل اليهود، سواء أكان ذلك في الخرائط أم في الرسوم البيانية أم في النصوص اللفظية. فجميع الروايات الواردة حول الزراعة والعمران الحضري والزواج ومتوسط العمر والمهن وغيرها موزعة بين فريقين: اليهود مقابل غير اليهود، على الرغم من أن غير اليهود لا يظهرون في أي موضع من تلك الروايات على الإطلاق. فلا يظهر وجودهم إلا كما لو كان كابوسًا، أو مرآة. ولذلك، يجب إبعادهم وضرب الحراسة عليهم.

ويصف باومان (Bauman 1989: 68) فائدة الحبس (confinement): «يجب إبقاء الغرباء بعيدين خارج الحدود التي تخضع لحراسة مشددة أو وسيلة ما لترسيم التخوم في سياق العبور إلى ثقافة حديثة 'تشبه البستان' [...] ويكمّل الاعتقال عملية الإبعاد. فلا تعود جماعة الضحايا ومن تبقى منها للالتقاء مع بعضهم بعضًا، ولا تلتقي عملياتهم الحياتية معًا، ويبلغ التواصل بينهم نهايته. فما يحدث لإحدى الجماعات المعزولة الآن ليس من شأن الجماعة الأخرى، وليس له من معنى تسهل ترجمته إلى مفردات التواصل الإنساني.»

ويعمل اليهود في إسرائيل على تحصين أنفسهم في الداخل وعزل الفلسطينيين في الخارج. وفي هذا السياق، يبين بابيه

ويعمل اليهود في إسرائيل على تحصين أنفسهم في الداخل وعزل الفلسطينيين في الخارج. وفي هذا السياق، يبين بابيه (Pappe ٢٠١٧: ٥٠) أن «المشكلة تكمن في وجود الفلسطينيين نفسه: فعلى الدوام، كان إبعادهم، أو إبعاد نفسك عنهم، يمثل الحل الذي قد يتسم بقدر هائل من الوحشية في المقام الأول، وحلًا سلميًا على نحو جذاب في المقام الثاني.»

(Pappe 2017: 50) أن «المشكلة تكمن في وجود الفلسطينيين نفسه: فعلى الدوام، كان إبعادهم، أو إبعاد نفسك عنهم، يمثل الحل الذي قد يتسم بقدر هائل من الوحشية في المقام الأول، وحلًا سلميًا على نحو جذاب في المقام الثاني.»

وعندما زار الكاتب خوسيه ساراماغو (Jose Sarama-gu) فلسطين، نظر من جبال رام الله إلى مستوطنة بساغوت وقال: «تمامًا مثل أوسفيتش». ولكن على خلاف الانتقادات العامة والوافرة التي طالت كلماته، فما كان يعنيه يتمثل في أن المستوطنات اليهودية تبدو من الخارج مثل معسكرات الاعتقال: أسيجة مرتفعة تغطيها الأسلاك الكهربائية وحراس عسكريون وجدران. وتفسر هافيفا بدايا (Haviva Pdaya 2011)، وهي باحثة في شؤون التصوف اليهودي، هذه العبارة بإحالتها إلى الصدمة التي طالت اليهود في الفترة الممتدة من العصور الوسطى حتى القرن العشرين. وحسبما تقول بدايا، كان العقاب الجماعي الذي يلقاه المرء لكونه يهوديًا في العصور الوسطى يتمثل في الطرد في العادة، ولكن هذا العقاب تحول في مطلع القرن العشرين من طردهم إلى حبسهم. وصار يتعين حبسهم في الغيتوهات أولًا، ثم في معسكرات الاعتقال. وعندما حطّ يهود أوروبا الشرقية رحالهم في فلسطين بغية استعمارها، كانت الذاكرة الجمعية الزاخرة بالطرد والحبس ماثلة بتفاصيلها في أذهانهم وكان خوفهم من جميع الأغيار على درجة هائلة من القوة، بحيث دفعهم ذلك إلى فعل ما تعرضوا له بالضبط: طرد الشعب الأصلاني وحبسه.

ويسمي إيلان بابيه (Ilan Pappe 2012) هذا الفعل «كولونيالية القرى الصغيرة» (shtetel colonialism). وفي هذا الإطار، يعقد لورانس دافيدسون (Lawrence Da-vidson 2012) مقارنة بين تقسيم فلسطين إلى غيتوهات وما دأب عليه القيصر الروسي من عزل اليهود الروس في مناطق خاصة تسمى «تخوم الاستيطان» (Pale of Settle-ment)، وهي عبارة عن منطقة حدودية تابعة للإمبراطورية الروسية وخصصتها الحكومة في العام ١٧٩٤ كمنطقة يُسمح لليهود بالاستيطان فيها. ويفترض دافيدسون أن من أسسوا دولة إسرائيل جاؤوا من هذه التخوم. ولذلك، لم تكن هذه الممارسة غريبة عليهم. ويؤكد بابيه على أن «الحاجة إلى إقصاء الفلسطينيين من أجل تحويل فلسطين إلى ملاذ آمن لليهود يمثل الرسالة الأقوى والأكثر شيوعًا، حيث كانت [هذه الرسالة] من بنات أفكار الصهاينة من وقت مبكر يعود إلى العقد الثالث من القرن الماضي.»

حالة إقصاء الفلسطينيين

تقدم الكتب المتداولة في المدارس الإسرائيلية التمييز الذي يستهدف الفلسطينيين والظروف اللاإنسانية التي يعيشون فيها من خلال إستراتيجية «تثبيت الوجود» (existential-ization) – وهذا ما تعنيه: تعليم الطلبة أن إسرائيل بصفتها صاحبة السيادة تملك الصلاحية التي تخولها التصرف خارج إطار القانون. وتؤكد الكتب المدرسية للطلبة على أنه ليس هناك من تناقض بين أن تكون ديموقراطيًا وأن تعتمد توجهًا يقوم على الإقصاء والتمييز.

«ليس هناك من تناقض بين الواقع الذي يقول إن إسرائيل تتألف من شعب مدني من المواطنين والواقع الذي ينطوي على عدة أقليات إثنية-ثقافية تعيش فيها، ولكن الشعب الوحيد الذي يتمتع بتقرير المصير هو الشعب اليهودي» (Diskin 2011: 165).

وفضلًا عن ذلك: «إن هزيمتهم المؤلمة، والمُثُل الصهيونية وتعريف إسرائيل بوصفها دولة للشعب اليهودي تجعل من الصعب على عرب إسرائيل أن يسلّموا بوضعهم كأقلية» (Sha-har 2013: 300).

وتعني عبارة «أن يسلّموا بوضعهم كأقلية» القبول بعيشهم في حالة دائمة من الإقصاء.

وفي الوقت الذين ينبغي فيه لليهود أن يتقيدوا بطائفة من القوانين المختلفة التي تعنى بمنعهم من الاقتراب من أقرانهم وجيرانهم من المواطنين الفلسطينيين والتعرف إليهم – مستوطنات منفصلة، ونظام تعليمي مستقل، وعدم السماح بالعبور إلى المناطق الفلسطينية، وخلاف ذلك – يعيش

ومن وجهة النظر الإسرائيلية، تعني هذه الحالة أن كل ضابط يحمل رتبة متدنية أو حتى كل جندي أن يتخذ قرارًا بشأن حياة الفلسطينيين أو موتهم، في ظل الإفلات من العقاب، وأنه لا يمكن مقاضاته في المحاكم على الإطلاق. وتندرج حياة الفلسطينيين ضمن أمر قضائي لا يأتي إلا في صورة إقصائهم، بمعنى «قدرتهم على التعرض للقتل» (Agamben 1987).

المواطنون والرعايا الفلسطينيون في درجات متفاوتة من حالة الإقصاء المذكورة.

«وحالة الإقصاء موجودة في القانون ويضعها القانون في عين الاعتبار في الوقت عينه. ومع ذلك، فهي تقع خارج القانون. فلا إجراء قضائيًا يحكم، أو يستطيع أن يحكم، حالة الإقصاء بالنظر إلى أنها تشكل حالة تشهد تعليق إنفاذ القانون» (Lloyd 2012: 73).

ومن وجهة النظر الإسرائيلية، تعني هذه الحالة أن كل ضابط يحمل رتبة متدنية أو حتى كل جندي أن يتخذ قرارًا بشأن حياة الفلسطينيين أو موتهم، في ظل الإفلات من العقاب، وأنه لا يمكن مقاضاته في المحاكم على الإطلاق. وتندرج حياة الفلسطينيين ضمن أمر قضائي لا يأتي إلا في صورة إقصائهم، بمعنى «قدرتهم على التعرض للقتل» (Agamben 1987).

ومع ذلك، فلدى إسرائيل «رغبة ملحة في تطبيع حالة الإقصاء التي ينطوي عليها نظام الاحتلال الذي تعتمده» (Lloyd، المصدر السابق). ولذلك، تقدم الكتب المدرسية حالة الإقصاء هذه باعتبارها واقعًا وجوديًا:

«تسكن شريحة من السكان البدو في ٤٥ مستوطنة لا تعترف السلطات بها. ولذلك، لا يتلقى هؤلاء السكان الخدمات الاعتيادية، من قبيل موازنات البلديات وخدمات المياه والكهرباء والصحة والرفاه الاجتماعي» (Shahar, 2013: 215).

فمن خلال التأكيد على أن هذا الوضع هو ما هو عليه، ودون طرح أي نقاش أو أسئلة ودون بيان الطريقة التي يمكن من خلالها أن لا يكون مواطنون يعيشون في دولة ديموقراطية أناسًا معترفًا بهم وكيف يحُرمون من الخدمات كافة، فإن الكتاب يقدم هذه الأوضاع المزرية التي تلمّ بالسكان البدو الإسرائيليين كما لو كانت شيئًا لا يزيد على كونه موجودًا. وفي الواقع، تتمثل السياسة التي تنفذها إسرائيل في النقب في تجريد البدو من ممتلكاتهم وحرمانهم وطردهم جميعًا. وتسعى إسرائيل، في سياق تعصبها المتطرف ضد الأقليات، إلى إيجاد طرق تيسر لها 'حل' 'مشكلة' البدو و'تعدياتهم' على أراضي 'الدولة'، وهي أراضيهم التي كانوا يملكونها طوال تاريخهم، وتحبسهم في بلدات حضرية شُيدت خصيصًا لهذه الغاية (Nassra 2012). وتعني المقاومة التي يبديها البدو لهذه السياسة نكرانًا للجميل والعقوبة المترتبة عليها عقوبة شديدة (ومن الشواهد على ذلك قرية أم الحيران، حزيران ٢٠١٧).[٢٠]

وتشرعن الحاجة إلى تهويد الأرض الحبس الدائم الذي نفذته الحكومة العسكرية خلال الفترة الممتدة بين العامين ١٩٤٨ و١٩٦٧. ويجري تسويغ هذه السنوات التي شهدت فرض الحصار المتواصل تحت شعار الحاجة المطلقة إلى المحافظة على أكبر مساحة ممكنة من الأراضي والإبقاء عليها في أيدي اليهود:

«ساعدت الحكومة العسكرية الاستيطان اليهودي في جميع أنحاء البلاد وحالت دون استيلاء العرب على الأراضي الفضاء.» (Shahar 2013: 138).

ويتكفل نظام معتمد لإصدار التصاريح والأوامر، والذي قد يشهد تغيرًا بين لحظة وأخرى، بتنظيم حياة الفلسطينيين تحت الحكم الإسرائيلي. وفي الواقع، «لا يشكل نظام التصاريح هذا تهديدًا لحياة الإنسان وجسده، وإنما يحرمه من الظروف التي يحتاج إليها في حياته. فهو يخلق الظروف التي يعرفّها أغامبين (Agamben) على أنها «الحياة بحدها الأدنى» (Lloyd، المصدر السابق)،» وهي بالتحديد الحياة الإنسانية التي تُنتزع منها حقوق الإنسان وتحرم صاحبها، وعلى أساس عرقه، من الظروف الأساسية الضرورية للإبقاء على حياته.

ومن الشواهد على هذا الحال قانون المواطنة، الذي يُشترط على الأزواج الفلسطينيين بموجبه الحصول على تصريح لكي يعيشوا معًا. ويشرعن الكتاب المدرسي هذا الشرط على أساس قوانين الطوارئ التي تحكم إسرائيل.

«يحرم القانون الفلسطينيين الذين يعيشون في يهودا والسامرة أو غزة ويتزوجون من مواطنات إسرائيليات، وكذلك الفلسطينيات اللواتي يقترنّ بمواطنين إسرائيليين، من المواطنة.

يدافع البعض عن هذا القانون تحت شعار ديموقراطية إسرائيل التي تدافع عن نفسها وحق إسرائيل في استئصال

الخطر الذي تشكله الهجمات الإرهابية.

يشيد البعض بالقانون لأسباب قومية وللضرورة التي تقتضي الحيلولة دون هجرة الفلسطينيين والمحافظة على السمة اليهودية للدولة.

قضت المحكمة العليا بأن هذا القانون غير دستوري، ولكنها رفضت الالتماس الذي رُفع ضده لأنه كان من جملة قوانين الطوارئ.» (Shahar 2013).

شرعنة المجازر

يرى أبادوراي (Appadurai 2006: 65) أن «الواقع الذي يشهد نقصان النقاء القومي [قد] يصبح عرضة لترجمته وتطويعه للإسهام في بناء هوية افتراسية [لأن] الأنظمة التي تعتمد مبدأ سيادة الأغلبية تنطوي في نفسها على بذور الإبادة الجماعية، بالنظر إلى أنها ترتبط وبصورة ثابتة ودائمة بالأفكار التي تتمحور حول تفرد الإثنيات القومية وكمالها [...] فقد تمسي الأغلبيات افتراسية وتنتهج نهج الإبادة العرقية [...] عندما تذكّرهم بعض الأقليات بالفجوة الصغيرة القائمة بين وضعها [...] والأفق المتاح أمام [...] الإثنيات القومية النقية التي لم يمسها تلوث.»

ويبين المؤرخ إيلان بابيه (Ilan Pappe) أن «صمود الأفكار التي تتمحور حول 'النقاء' الإثني وثباتها شكّل حجر الأساس في السياسة الصهيونية منذ اليوم الذي نشأت فيه، وهو ما يزال يحول الوسائل، التطهير العرقي، إلى أيديولوجيا ورؤية.»

«ويقول باومان (Bauman 1989: 92) إن هذه الرؤية هي رؤية بستاني، جرى إسقاطها على شاشة كبيرة. فبعض البستانيين يكرهون الأعشاب الضارة التي تتلف تصميمهم [...] وبعضهم لا يبدون أي عاطفة البتة تجاهها؛ فما هي إلا مشكلة ينبغي إيجاد حل لها، ومهمة إضافية يتعين إنجازها. ولا تكمن المسألة في أن ذلك يُحدث فرقًا بالنسبة إلى تلك الأعشاب الضارة؛ فالبستانيون بشقيهم يستأصلونها. [...] ويتفق الطرفان: يجب أن تموت الأعشاب الضارة ليس بسبب ما هي عليه، بل بسبب ما ينبغي أن يكون عليه البستان من جمال وترتيب.»

وفيما يلي أحد الأمثلة التي يسوقها أحد الكتب المتداولة في المدارس الإسرائيلية:

«على الرغم من أن مجزرة دير ياسين لم تتسبب في دبّ الفزع والذعر في نفوس عرب إسرائيل وتدفعهم إلى الفرار [...]، فقد سرّعت من وتيرة فرارهم إلى حدٍّ بعيد. وقد أفضى هذا الفرار إلى إيجاد حل لمشكلة ديموغرافية مخيفة، بل إن شخصًا معتدلاً كوايزمان [أول رئيس لدولة إسرائيل] تحدث عن هذا الأمر كما لو كان «معجزة» (Barnavi 1998: 184).

وتشكل المنفعة والكفاءة المعايير الرئيسية التي توظَّف في شرعنة المجازر. فهذا ما يجعلنا نقرأ في أحد كتب التاريخ المتداولة في المدارس الإسرائيلية السؤال التالي حول مجزرة قبية، التي أقدم فيها أريئيل شارون – الذي تبوأ منصب رئيس وزراء إسرائيل في مرحلة لاحقة من حياته – والوحدة (١٠١) السيئة الصيت التي كانت تحت إمرته على هدم قرية عن بكرة أبيها وعلى رؤوس سكانها في فعل انتقام منهم:

«هل تعتقد بأن أعمال الانتقام كانت كافية لردع العرب عن مهاجمة إسرائيل؟» (Naveh et al. 2009: 205).

وليست اللغة المستخدمة في الكتب المدرسية ووسائل الإعلام لسرد المعلومات أو نقل الأخبار عن موت الفلسطينيين هي اللغة التي تُستخدم في معرض الإشارة إلى البشر، بل إلى الشحن. فلا يسمى الفلسطينيون 'ضحايا' على الإطلاق، وعندما يتوجه الجنود إلى قتلهم «يقال لهم أن يطلقوا النار على أهداف، تسقط عند إصابتها» (Bauman 1989: 92). فعلى سبيل المثال:

«كانت غالبية الهجمات تستهدف الأعيان المدنية، واشتملت على عمليات مراقبة واجتياحات نُفذت في عمق الأراضي الواقعة خلف الحدود» (Inbar, 2004: 244).

وتضفي الكتب المدرسية صفة شرعية تامة على التطهير الإثني (الخطة «د») الذي طال الطريق الواصل بين تل أبيب والقدس:

«من وجهة نظر يهودية، حققت الخطة (د) نجاحًا منقطع النظير. فقد عززت القوة العسكرية التي يتمتع بها المجتمع اليهودي. وشكلت ترابطًا إقليميًا [يهوديًا] باعتباره 'أصلًا إستراتيجيًا'. وتركت آثارًا إيجابية على المستوى الدبلوماسي لأنها أسهمت في إقناع الأميركيين والروس بأن المجتمع اليهودي قوي من الناحية العسكرية وأنه يستطيع الدفاع عن نفسه (Blank 2006: 46).

وليس للأسباب التي تقف وراء موت الفلسطينيين أهمية ذات بال. فالكتب المدرسية المتداولة في إسرائيل لا تجد عذرًا ولا تفسر قتل هؤلاء الفلسطينيين، بل تشرعنه من خلال تفسيرات تبعية، ولا سيما من خلال بيان التبعات الإيجابية بعيدة المدى التي حققتها لإسرائيل والتي تحولت لاحقًا إلى قضية. ومثلما شهدنا في الخطاب السياسي خلال الهجمة الشرسة الأخيرة التي شنتها إسرائيل على قطاع غزة في العام ٢٠١٤، يموت الفلسطينيون إما لأنهم لا يفعلون ما يُطلب منهم أو عن طريق الخطأ.

وتقدم بعض الكتب تفسيرات فنية، ولا تشمل أي من

במקביל, התארגן חרם כלכלי ודיפלומטי. בינואר 1950 עיברה הליגה הערבית תוכנית שמטרתה למנוע מפירמות וחברות מסחריות לעשות עסקים עם ישראל. בדמשק הוקם משרד חרם מרכזי, עם סניפים בבירות ערב. משרד החרם ערך "רשימות שחורות" של שותפיה המסחריים של ישראל. לחרם נכנעו חברות בינלאומיות גדולות, במיוחד חברות בעלות אינטרסים גדולים בארצות ערב, לרבות חברות הנפט.

מעל לכל, האלימות הפכה למציאות יומיומית בגבולותיה של ישראל. מעשי האיבה החלו מיד לאחר חתימת הסכמי רודוס, וכבר ביוני 1950 חתמו חברות הליגה הערבית על אמנת ביטחון קיבוצי כנגד "האיום הציוני". בכל יום נוספו ביטויי אלימות – מארבים, הטמנת מוקשים, הצתות, רציחות. האלימות הבלתי פוסקת, לצד תחושת המחנק בשל הבידוד, המצור של הארץ וההתעמולה העוינת, עיצבו את החברה ואת הרוח הישראלית.

הישראלים האמינו כי קיומם תלוי אך ורק בכוח עמידתם ובעוצמת צבאם, ולפיכך הגיבו בעוצמה רבה לכל התגרות. מעשי איבה [illegible] פרצו מול הסורים, שהפריעו לעבודות הייבוש של ימת החולה, ירו על דייגי טבריה והטרידו את קיבוצי עמק הירדן. לא פעם התדרדר המצב בגיזרה זו למלחמה זעירה. בדרום נמשכו ההסתננויות מרצועת עזה. הגבול עם ירדן, שהתוותה בצורה שרירותית וחצץ לא פעם בין כפריים ערביים לבין אדמותיהם, היה קו אש ממש. ההסתננויות התרבו. אמנם, רק מיעוטן היו חדירות של "פדאיון" ("המחרפים נפשם") – פלסטינים [illegible], שנשלחו לפעולות פיגוע ומודיעין. רובן היו נסיונות של הפליטים לשוב לכפריהם, או סתם נסיונות לגנוב תוצרת וציוד

273

الصورة رقم (١١): «وُهب جنود الوحدة (١٠١) شجاعة فائقة وقدرة على الارتجال والصمود في أحلك الظروف، ناهيك عن التماسك والولاء لأصدقائهم المصابين، بحيث أضحوا يمثلون خرافة الجندي المقاتل في قوات الدفاع الإسرائيلية» (٢٠٠٩: ٢٠٤).

الروايات التي تسردها أي شهادة جاءت على لسان الضحايا أو أقاربهم.

ففيما يتصل بمجزرة دير ياسين، التي ارتكبت في العام ١٩٤٨:

«تعطّل مكبر الصوت الذي كان المتحدث يحث سكان قرية دير ياسين عبره على مغادرة قريتهم [...] ولم يغادر السكان القرية، وهذا هو السبب الذي يقف وراء ارتفاع عدد الضحايا في صفوفهم بدرجة كبيرة» (Naveh et al. 2009: 113).

وفيما يتعلق بمجزرة قبية، التي ارتكبت في العام ١٩٥٣:

«لم يكن الجنود على علم بأن العديد من أبناء القرية كانوا يختبئون في منازلهم في تلك الليلة» (Inbar 2004: 244).

وتكمن النتيجة المهمة التي أفرزها قتل هؤلاء الفلسطينيين الأبرياء في بيوتهم في أنه «ولّد بعض الثقة لدى اليهود في منازلهم» (Avieli-Tabibian 2001, Domka et al. 2009, Naveh 2009)، «واستعاد معنويات جيش الدفاع الإسرائيلي وكرامته وساعده على التحول إلى جيش صارم يملك قوة الردع وتستطيع يده الطولى أن تصل إلى العدوّ في عقر داره» (Inbar 2004, Blank 2006).

وعلى هذا المنوال، نقرأ الأسئلة التالية:

- قُتل ٥٠ مصريًا وأُسر ٤٠ آخرين – أكبر عملية منذ حرب الاستقلال.
- كيف يؤثر مثل هذا العنوان على معنويات المواطنين الإسرائيليين؟ (Domka et al. 2009: 161)

وهذا هو ما يسميه مبيمبي (Mbemebe) منطق البقاء: «كل عدو يُقتَل يُشعِر الناجي بقدر أكبر من الأمن.»

ومن الناحية البصرية، تضفى هالة من الغموض على القتلة بوصفهم شخصيات أسطورية وقدوة يحذو الشباب الإسرائيليون حذوها. فعقب التقارير التي نشرت عن مجزرة قبية، نرى هذه الصورة التي تمجد القتلة تحت ملصق يرد فيه: «النمو مقابل الحصار» (Barnavi 1999) أو فوق أغنية تمجدهم (Tabibian 2001)، وتمجيد لفظي للقتلة في تعليق. ويرد في النص الذي يرافق الصورة نفسها في كتاب (Naveh et al.):

فالمديح يكال للقتلة لما هم عليه بصرف النظر عما فعلوه. فهم يتحلون بالأخلاق والطيبة والولاء، على الرغم من أنهم يقترفون جرائم فظيعة ضد الإنسانية عندما تتطلب مصلحة الشعب ذلك. وتكمن العبرة التي تدرسها هذه الرواية في أن مثل هؤلاء الوطنيين الشرفاء لم يكن لهم أن يقدموا على اعتداء لا يمكن تسويغه.

ويبين بيتربيرغ (Piterberg 2008: 199) أنه «من وجهة نظر المستوطن، يعدَ 'من نحن' شيئًا، وما نفعله بالآخرين شيئًا آخر. [...] فما نحن عليه يكمن فيما نجده في الكتاب المقدس وفي الطوباوية الصهيونية، وما نقدم على فعله – التطهير العرقي في فلسطين – يمثل رواية مختلفة. وهاتان الروايتان تتشابكان مع بعضهما بعضًا بصورة لا فكاك عنها، ولكن ليس بالنسبة إلى الصهاينة.» وتضرب جذور هذه العقلية عميقًا في منظومة التعليم الإسرائيلية وفي سلوك قواتها المسلحة، مثلما يرى المرء ذلك في شهادات الجنود.[٢١]

وحسب الفرضية التي يسوقها باومان (Bauman 1989: 92)، «يعزز نزع السمات الإنسانية عن الأعيان والتقييم الذاتي الأخلاقي الإيجابي بعضهما بعضًا. فقد ينجز التابعون أي غاية بإخلاص في الوقت الذي يبقى فيه ضميرهم الأخلاقي لا يختلجه الفساد.»

ويتمحور الادعاء العام الذي تسوقه الروايات التي تتناول الطرد والمجازر، وفقًا لجيجيك (Zizek 1989): قد تتغاضى النتيجة الإيجابية (لصالحنا) عن الشر (الذي يحلّ بهم) أو تشيح ببصرها عنه.»

كلمة ختامية

تغرس الكتب المدرسية المتداولة في إسرائيل في نفوس الطلبة المنطق الاستيطاني الكولونيالي الذي يقوم على الإقصاء بوصفة المنطق الوحيد الذي يتصل بالعلاقات القائمة مع أقرانهم وجيرانهم من المواطنين الفلسطينيين. وتعمل هذه الكتب على تعزيز 'العنصرية النخبوية' – العنصرية التي يجري إملاؤها من الأعلى وغرسها في الأذهان من خلال الكتب المدرسية والأوراق والخطابات البرلمانية وكتب التاريخ. وهذه العنصرية «تثبت نفسها في الممارسات (أشكال العنف، والاحتقار، والتعصب، والإذلال والاستغلال)، وفي أشكال الخطاب والتمثيل التي [تعبّر] عن الحاجة إلى تطهير الجسم الاجتماعي، من أجل المحافظة على 'النفس' أو على 'هويتنا من جميع أشكال الاختلاط أو التزاوج أو الغزو والتي تتمحور حول سمات الأغيار (الاسم، ولون البشرة، والممارسات الدينية)» (Balibar 1991: 17)، أو وجود الناس في مكان ليسوا مرغوبين فيه، مثلما رأينا ذلك.

ترجمة ياسين السيد (عن الانجليزية)

الهوامش:

١ هذه المصطلحات مقتبسة من كتاب أبادوراي (Appadurai):
Appadurai: the fear of small numbers 2006

٢ للاطلاع على المساعي التي تبذلها إسرائيل في سبيل محو التاريخ الفلسطيني وطمسه، انظر الموقع الإلكتروني:
http://www.haaretz.com/israel-news/.premi-um-1.798565 (شوهد في تشرين الأول، ٢٠١٧)

٣ وضع زيغمونت باومان هذا المصطلح في كتابه المنشور في العام ٢٠٠٦ (Zigmunt Bauman 2001).

٤ كتاب «جغرافيا أرض إسرائيل»، ص. ٢٤٠.

٥ وقد لوّح الزعيم الصهيوني دافيد بن غوريون، الذي تقلد منصب رئيس الوزراء في إسرائيل، بنسخة من الكتاب المقدس أمام لجنة بيل (١٩٣٧)، والتي كان من المقرر أن تتخذ قرارًا بشأن تقسيم فلسطين، حيث قال: «هذا هو كوشاننا (شهادة تسجيل الأراضي العثمانية)». ويحمل الساسة الإسرائيليون المعاصرون هذه الرسالة نفسها، التي ترى أن الحقوق اليهودية تستند إلى الكتاب المقدس.

وكتبت وزارة التربية والتعليم في رسالة وجهتها إلى المعلمين والطلبة في يوم ٢٩ تشرين الثاني ٢٠١٤ (وهو اليوم الذي يصادف ذكرى إعلان الاستقلال) تقول: «يقيم الكتاب المقدس البنية التحتية الثقافية لدولة إسرائيل. ففيه يرسو حقنا في الأرض.»

كما لوح داني دانون، سفير إسرائيل لدى الأمم المتحدة، بالكتاب المقدس في يوم ٢٣ كانون الأول ٢٠١٦، قائلًا: «يضم هذا الكتاب ثلاثة آلاف سنة من التاريخ اليهودي في أرض إسرائيل ولا أحد يستطيع أن يغيره.»

ومؤخرًا، وبخ وزير التربية والتعليم الإسرائيلي مراسل قناة الجزيرة، الذي أجرى مقابلة معه، وقال له: «إذا أردت أن تقول أن هذه الأرض ليست لنا، فعليك أن تغير الكتاب المقدس. احضر لي كتابًا مقدسًا آخر يقول إن أرض إسرائيل لا تعود لليهود» (٢٧ شباط ٢٠١٧).

٦ نشكر د. دفورا غامليل (Dvora Gamlieli) – الباحثة في دراسات التوراة والكابالا – على هذا التوضيح.

٧ يعدّ هذا الكتاب، الذي حُظر في نهاية المطاف، الكتاب الوحيد الذي يذكر الأسماء الفلسطينية للقرى التي طالها التطهير واستوطنها اليهود.

٨ تكمن الحقيقة التاريخية في أنه جرى الاستيلاء الأراضي الفلسطينية في قرية عين حوض ومصادرتها. ويقطن سكان القرية الذين تمكنوا من العودة إليها بطريقة أو بأخرى حتى هذا اليوم في بقعة صغيرة من أرضهم بوصفهم 'لاجئين حاضرين' (present absentees)، وهم محرومون من جميع الحقوق والخدمات، وذلك فيما بات يحمل التسمية القانونية 'القرى غير المعترف بها'. وفي يوم ٣١ تموز ٢٠٠٧، رُبط أحد المنازل في قرية عين حوض بشبكة الكهرباء. وهناك ما يربو على ١٠٠ قرية غير معترف بها في إسرائيل.

9 http://www.aljazeera.com/news/2017/01/palestinian-killed-israeli-home-demolition-170118043846949.html (شوهد في تشرين أول، ٢٠١٧)

١٠ http://www.timesofisrael.com/as-israeli-forces-go-on-high-alert-after-faqha-killing-hamas-may-be-looking-to-avoid-a-war/ (شوهد في تشرين أول، ٢٠١٧)

١١ https://electronicintifada.net/blogs/maureen-clare-murphy/brother-and-sister-slain-checkpoint-were-executed-palestinians-say (شوهد في تشرين أول، ٢٠١٧)

١٢ http://www.haaretz.com/israel-news/.premi-um-1.794617 (شوهد في تشرين أول، ٢٠١٧)

١٣ http://www.jpost.com/Arab-Israeli-Conflict/Justice-Ministry-refuses-to-demolish-house-of-Abu-Khdeir-murderer-483074 (شوهد في تشرين أول، ٢٠١٧)

١٤ يشير اصطلاح العرب إلى العرب المسلمين والمسيحيين، ولكنه لا يشير إلى اليهود العرب.

١٥ ترتبط الرقابة الأمنية بالأخبار الواردة عن مردخاي فعنونو، الذي يرد ذكره بعد صورة الحاجز مباشرة. فقد باع فعنونو أسرارًا نووية وسُجن، ثم وُضع رهن الإقامة الجبرية في منزله على مدى السنوات الثلاثين المنصرمة.

١٦ شكلت مجزرة كفر قاسم التي اقتُرفت في العام ١٩٥٦ أحد محاور هذه الخطة. وكانت الفكرة تكمن في قتل عدد قليل من الفلسطينيين وترويع الآخرين لكي يفروا إلى الأردن.

17 https://www.dailysabah.com/mideast/2014/07/14/mothers-of-all-palestinians-should-also-be-killed-says-israeli-politician; https://www.washingtonpost.com/news/worldviews/wp/2015/05/07/israels-new-justice-minister-considers-all-palestinians-to-be-the-enemy/?utm_term=.3b10cd2dea69 (شوهد في تشرين أول، ٢٠١٧)

١٨ http://bit.ly/2fJmSCe (شوهد في تشرين الأول، ٢٠١٧)

١٩ The lab - we sell weapons. Yotam Feldman 2013. https://www.youtube.com/watch?v=iabky5rvsGk (شوهد في تشرين الأول، ٢٠١٧)

20 https://972mag.com/photos-israel-demolishes-homes-in-umm-el-hiran-amid-violence/124583/ صور من الاعتداءات على أم الحيران في النقب.

٢١ انظر منظمة كسر الصمت،
https://www.amazon.com/Our-Harsh-Logic-Testi-monies-Territories/dp/0805095373.
http://www.breakingthesilence.org.il/protective-edge (شوهد في تشرين أول، ٢٠١٧)

المراجع

الكتب المدرسية الواردة في الورقة:

الجغرافيا (باللغة العبرية)

- Aharony. Y and Sagi T. The Geography of the Land of Israel - A Geography textbook for grades 11-12. Tel Aviv. Lilach Pub., 2003
- Gal, Ofira and Gudman, Shira: Living together in Israel. A textbook in Homeland, citizenship and society. Tel Aviv: The Centre for Educational Technologies, 2005
- Fine, Tz., Segev, M. and Lavi, R. Israel-The Man and the Space – selected chapters in geography. Tel Aviv: The Centre for Educational Technologies Pub., 2002
- Vaadya, D., Ulman, H., & Mimoni, Z. The Mediterranean Countries for 5th grade. Tel Aviv. Maalot Publishers, 1994/1996
- Avieli-Tabibian, K. The Age of Horror and Hope: Chapters in History for Grades 10–12. Tel Aviv: The Centre for Educational Technologies, 2001

التاريخ (بالعبريّة)

- Bar-Navi, E. The 20th Century: A History of the People of Israel in the Last Generations, for Grades 10–12. Tel Aviv: Sifrei Tel Aviv, 1998
- Bar-Navi, E. and Nave, E. Modern Times Part II – The History of the People of Israel, for Grades10–12. Tel Aviv: Sifrei Tel Aviv, 1999
- Blank, N. The Face of the 20th Century. Tel Aviv: Yoel Geva, 2006
- Domka, E., Urbach, H. and Goldberg, Z. Nationality: Building a State in the Middle East. Jerusalem: Zalman Shazar Centre, 2009
- Inbar, S. 50 Years of Wars and Hopes. Tel Aviv: Lilach publishers, 2004
- Naveh, E., Vered, N. and Shahar, D. Nationality in Israel and the Nations: Building a State in the Middle East. Tel Aviv: Reches, 2009
- Yaakoby, D. et al. A World of Changes: A History Book for 9th Grade. Tel-Aviv: The Curriculum Centre in the Ministry of Education/ Maalot, 1999

الدراسات المدنية (بالعبريّة)

- Geldi, B. Nave, N. and Matzkin, A. Going the Civilian Way. Tel-Aviv, Reches Publishers, 2012
- Shahar David. Israel – A Jewish Democratic State. Tel Aviv: Kineret Publishers, 2013)
- Diskin Avraham. Government and Politics in Israel . Israel: Maggie publishers, 2011

المراجع العامّة

- Agamben, G. Homo Sacer: Sovereign Power and Bare Life. Meridian: Crossing Aesthetics, 1987
- Agamben, G. State of Exception. Chicago university Press, 2005
- Appadurai, Arjun. Fear of Small Numbers: An Essay on the Geography of Anger. Duke University Press, 2006
- Balibar, Etienne. “Is There a 'Neo-Racism'?” In Etienne Balibar, Immanuel Maurice Wallerstein, Race, Nation, Class: Ambiguous Identities, London& New York: Verso, 1991
- Bar-Gal, Y.. Moledet and geography in a hundred years of Zionist Education. Tel-Aviv: Am Oved Publishers, 1993a
- Barthes, R. ‘La chambre claire’, in Oeuvres Complètes, vol. V. Paris : Editions du Seuil, 1980
- Bauman Zygmunt. Modernity and the Holocaust. Cornell University Press, 2001
- Berda Yael. The Bureacracy of the Occupation: The Permit Regime in the West Bank, 2000-2006. Hakibbutz Hameuhad pub. And Van Leer institute. Jerusalem. Israel, 2012
- David Lloyd. “Settler Colonialism and the State of Exception: The Example of Israel/Palestine. In: Omar Jabary Salamanca et. Al. (Editors) Past is Present: Settler Colonialism in Palestine, settler colonial studies 2, 1 (2012)
- .Davidson, Lawrence. Cultural Genocide. New Jersey and London Rutgers University Press, 2012
- Fairclough, N. Analyzing Discourse: Textual Analysis for Social Research. London: Routledge, 2003
- Hicks, D. 'Images of the World: An Introduction to Bias in Teaching Materials'. Accidental Paper no. 2. Centre for Multicultural Education. London. UK. Institute of Education. London University., 1980
- Goldberg, David Theo. The Threat of Race: Reflections on Racial Neoliberalism. Wiley-Blackwell, 2008
- Henrikson, A. K. (1994). “The power and politics of maps”. In:. G.J. Demko and W.B.Wood (Eds.) Reordering the World: Geopolitical perspective on the 21st century, San Francisco, Westview Press, 1994, p 50-70.
- Kareem Rabie and Sobhi Samour. Swinburne Institute for Social Research. Australia.
- pp. 59-80
- Kareem Rabie and Sobhi Samour. Swinburne Institute for Social Research. Australia
- pp. 81-107
- Kimmerling, B. The Invention and Decline of Israeliness: State, Society, and the Military,
- Berkeley • Los Angeles • London: University of California Press, 2001
- Kress, G. Multimodality: A Social Semiotic Approach to Contemporary Communication (1st Edition), London and New York: Routledge, 2010

- Said, Edward. "Zionism from the Standpoint of its Victims", Social Text, 1
- (1979), p. 29.
- Shohat, E. "Sephardim in Israel: Zionism from the Standpoint of its Jewish Victims", Social Text 19/20 (1988)
- Smooha, S. 'The Model of Ethnic Democracy: Israel as a Jewish and Democratic State', Nations and Nationalism 8(4) (2002), 475–503.
- Sternhal, Zeev . The founding Myths of Israel he Founding Myths of Israel: Nationalism, Socialism, and the Making of the Jewish State. Princeton University Press, 1999
- Van Leeuwen, T. "The schoolbook as a multimodal text", International Schulbuch Forschung, 14(1), (1992), 35-58.
- Van Leeuwen, T. "The representation of social actors". In: C.R. Caldas-Coulthard, & M. Coulthard, (Eds.) Texts and Practices: Readings in Critical Discourse Analysis. London, Routledge, 1996
- Van Leeuwen, T. 'Visual Racism', in M. Reisigl and R. Wodak (eds) The Semiotics of Racism, Vienna: Passagen Verlag, 2000, 333-350
- Van Leeuwen, T. Discourse and Practice: New Tools for Discourse Analysis (Oxford Studies in Linguistics). Oxford: Oxford University Press, 2008
- Wertsch, J. Voices of Collective Remembering. Cambridge: Cambridge University Press, 2002
- Wolfe, Patrick. Settler Colonialism and the Elimination of the Native. In: Journal of Genocide Research, 8(4) (December, 2006) 348-409
- Wolfe, Patrick. 'Purchase by Other Means: The Palestine Nakba and Zionism's Conquest of Economics". .In: Past is Present: Settler Colonialism in Palestine 2, 1 (2012) edited by Omar Jabary Salamanca, Mezna Qato, Kareem Rabie and Sobhi Samour. Swinburne Institute for Social Research Australia, 2012, pp. 133-171
- Yiftachel, O. Ethnocracy – Land and Identity Politics in Israel/Palestine. Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press, 2006
- Žižek, S. Violence. New York: Picador, 1989
- Lemke, J. Metamedia Literacy: Transforming Meanings and Media. In D. Reinking, L. Labbo, M. McKenna, & R. Kiefer (Eds.), Handbook of Literacy and Technology: Transformations in a Post-Typographic World. Hillsdale, NJ: Erlbaum, 1998, 283-301.
- Mbembe, A. "Necropolitics" Public Culture Winter 15(1) (2003), 11-40;
- Morris, B. The Birth of the Palestinian Refugee Problem Revisited. Cambridge: Cambridge University Press, 2000
- Nasasra, M. 2012 "The Ongoing Judaisation of the Naqab and the Struggle for Recognising the Indigenous Rights of the Arab Bedouin People, Settler Colonial Studies, Vol. 12, (2012), 81- 107.
- Pappe, Ilan. (2006). The Ethnic Cleansing of Palestine. London and New York: One world, 2006
- Pappe, Ilan (2012). "Shtetl Colonialism: First and Last Impressions of Indigeneity by Colonised Colonisers". In: Past is Present: Settler Colonialism in Palestine 2, 1 (2012) edited by Omar Jabary Salamanca, Mezna Qato, Kareem Rabie and Sobhi Samour. Swinburne Institute for Social . Pp.39-58
- Pappe Ilan. Ten Myths about Israel . London and New York: Verso, 2017
- Pdaya, Haviva. Walking beyond Trauma: Mysticism, History and Ritual. Tel Aviv: Resling, 2011
- Peled-Elhana, Nurit. Palestine in Israeli Schoolbooks- Ideology and Propaganda in Education. London. I.B Tauris Publishers, 2012
- Piterberg, Gabriel. "ERASURES". New left review 10 July (August 2001)
- Piterberg, Gabriel. The Returns of Zionism: Myths, Politics and Scholarship in Israel. London and New York, Verso, 2008
- Rabinowitch, D. "Natives with jackets and degrees. Othering, objectification and the role of Palestinians in the co-existence field in Israel". Social Anthropology, 9, 1, (2001), 65–80
- Reisigl, M., & Wodak, R. Discourse and discrimination rhetorics of racism and anti-Semitism. London New York: Routledge, 2001